أدهم شرقاوي

"قس بن ساعدة"

إلى المنكسرة قلوبهم



kalemat
٢٧٠٥٢٦٥٠٤١

الإهداء:

إلى الذين كُسِرتْ قُلوبُهُم

يا لهذه الدُّنيا كم هيَ مليئَةٌ بالغَادِرين!

إلى الذين أخذَ منهم الموتُ قِطعاً من قلوبِهم

فتصبَّروا، لأنهم يعرفون أنَّ في الجنةِ لقاءً لا فِراق بعده!

إلى الذين أنهكَهُم المرضُ، فلم يصرِفْهُم عن بابِ اللهِ

لأنهم يعرفون أنّ الدُّنيا دار امتحانٍ ليس إلا!

إلى الذين ابتلاهم الله بضيقِ الرّزقِ،

فحمدُوه، وصبرُوا على قضائه، فكانوا أثرياءَ في قلوبهم!

إلى المُطلقاتِ العفيفاتِ، والأراملِ القابضاتِ على الجمر!

إلى الشبابِ المتعففين الذين يُصارعون أنفسَهم وشياطينهم!

إلى الحَزانى، والمكلومين، والمخذولين،

أعرفُ أنّ الكلامَ لا يسُدُّ ثُقباً في القلبِ، ولكنّه يُعزّي

أهديكم هذا الكتاب علّه أن يكون عزاءً!

1

عندما يأتيكَ الخُذلانُ من الشَّخص الذي،

كنتَ تستثنيه دائماً،

فأنتَ لا تفقدُ الثقة بشخصٍ واحدٍ،

وإنما تفقدها بالجميع،

ستعيشُ بعدها فَزِعاً، ولن تسمح لأحدٍ بالاقترابِ منكَ،

لأنكَ ترى الجميع مشاريع خُذلانٍ مع وقفِ التَّنفيذ،

ستتلبد، ولن تُؤثر الكلماتُ فيكَ، بقدر ما ستثيرُ فيك الفزع!

شعورك كالذي نجا من الغرقِ بأعجوبةٍ،

صحيحٌ أنه نجا، ولكنه سيخاف الماء إلى الأبد،

كالعصفورِ الذي لم تقتله الطلقة،

ولكنها أفقدته أمانَ الشَّجرة إلى الأبد،

كالمبتورةِ يده، لا يرى سواها،

يحدثُ أن يبقى الناسُ عالقين في جروحهم،

أعانَ اللهُ كل من أُتيَ من مأمنه،

ولا سامحَ اللهُ كل من دخل قلباً فنزعَ منه طمأنينته!

2

قالَ المدائنيّ: رأيتُ بالباديةِ امرأةً لم أرَ أجمل منها قط!

فقلتُ: واللهِ هذا فِعلُ صلاح الدُنيا والسُرور بكِ!

فقالتْ: كلا، واللهِ إنّ لديّ أحزان، وخلفي هُموم، وسأُخبرك:

كانَ لي زوج، وكانَ لي منه ابنان،

فذبحَ أبوهما شاةً يوم عيد الأضحى، والولدان يلعبان،

فقالَ الأكبرُ للأصغر: أتريدُ أن أُريكَ كيف ذبحَ أبي الشاة؟

فقال: نعم.

فقامَ إليه يُلاعبه، فإذا به قد ذبحه!

فلمّا نظرَ إلى الدمِ فزعَ، وهربَ نحو الجبل، فأكله الذئب،

فخرجَ أبوه في طلبه فوقعَ ومات!

فقلتُ لها: وكيف أنتِ والصبر؟

فقالتْ: لو دامَ لي لَدُمتُ له، ولكنه كانَ جُرحاً فاندمل!

لا تخدعنّكم المظاهر، الناسُ صناديقُ مُغلقة.

فلا تحكموا على الصندوقِ فإنّ فيه ما لا ترون!

والناسُ كالكُتبِ فيهم ما لا يُمكن معرفته بالنظرِ إلى الغلافِ فقط!

خلف الضحكات جروح غائرة يُحاولُ الناس كِتمانها عن الناس،

فلا ترَ إلا ما ترى!

وراء بعض النِعم الظاهرة حرمان قاتل،

يتجرَّعه صاحبه بمرارةٍ ولا يدري به إلا خالقه!

والسعادةُ التي تحسبها كاملة، أنتَ لا تدري إن كانت مجرد غلاف لصفحاتٍ،

أنتَ لا تعلمُ حرفاً عمّا فيها!

الصورُ في مواقعِ التواصلِ ليست إلا ثمرة جوز،

إنها القشرة الصلبة فقط، في الداخلِ أشياء هشة جداً!

هذه الدُنيا دار نقص، ولا تكتمل لأحد،

ثِقْ أن كل إنسان ينقصه شيء ما، فمُرّ هيناً، كل إنسان فيه ما يكفيه!

3

نحن لا نبتعدُ كرهاً وإنما ألماً،

هذا الابتعادُ ليس الزُّهدُ، وإنما النأيُ،

لا أحد يريدُ أن يرى جرحَه ماثلاً أمام عينيه،

لا أحد يريدُ أن يتذكر أنه لم يكن كافياً،

وأن اليد التي كان يُقبّلها هي التي طعنته،

وأن العين التي كان يخشى بكاءَها هي التي أبكته،

نحن نبتعدُ حفاظاً على ما تبقَى منا،

صيانةً لجروحنا من نظراتِ الشّفقة،

حتى الكلاب وهي كلابٌ إذا ما جُرحت،

أخذتْ لها مكاناً قصيّاً آمناً ولعقت جراحها فيه،

بعض الودّ لا يُصان إلا بالبعد!

4

قالَ الشَّعبيُ: شهدتُ شريحاً القاضي وقد جاءته امرأة تُخاصمُ رجلاً،

فأرسلت عينيها وبكت بكاءً شديداً.

فقلتُ له: يا أبا أُمَيَّة، ما أظُنُّ هذه البائسة إلا مظلومة!

فقالَ لي: يا شعبيُ، إنَّ إخوةَ يُوسف جاؤوا أباهم عشاءً يبكون!

هذا هو شأن الناس دوماً، يكونُ أحدهم ظالماً مفترياً، ثم يجلسُ يتشكَّى كأنَّهُ المظلوم.

يجلدُكَ أحدهم بِسَوْطِ لسانه، ويأكلُ لحمكَ في كلِ المجالس،

فإذا فاضَ بكَ الكأس، وما عادَ فيكَ ذرة احتمال،

فرددتَ عليه بعض قوله، لرأيته قد لبسَ عباءةَ الثقى، واتهمكَ بما هو غارق فيه!

تُوزَّعُ تركة الأب، فيستأثرُ بعضهم بها،

فإذا طالبَ بعضُ الإخوةِ بحقِّهِم في القضاء، صاروا يقولون:

أين صلة الرحم، وكيف يُجرجزُ المرءُ أخاه إلى المحاكم؟!

يُريدون أن يضجعوكَ أرضاً، ويذبحوكَ،

فإذا انتفضتَ اتهموكَ أن سكينهم آذتهم لأنكَ لم تكُنْ ذبيحاً مُسالِماً!

ولو نفرَ دمُكَ وأصابَ ثيابهم لاشتكى الذابحُ من قلةِ صبرِ الذبيح!

تعيشُ الزوجةُ ردحاً من الزمنِ صابرة، لا يُسمع لها صوت،

تتلقّى الإهانة بعد أُخرى، ممّن خانَ الأمانة، فإذا فاضَ بها الكأس، وأنطقَهَا الألم، اتّهموها بالنُّشوز!

مشكلةُ الناسِ أنهم لا يعرفون إلا رداتِ الأفعال،

أما العذابات المتكررة، الإهانات التي لا تحتملها الجبال،

الظلم الذي تراكمَ فوق بعضه حتى بلغَ عنانَ السماء، فلا يراه أحد!

5

النّصرُ ليس أنْ لا تتذكر،

فلا أحد يستطيعُ أن يخلعَ ذاكرته ويمضي،

وإنما النّصرُ أن تتذكر ولا تحِنَّ!

أن تضعَ عينك في عين جرحكَ،

دون أن يرفَّ لكَ جفن!

أن تتحسسَ النّدبة في قلبك ولا تتوجع،

وإنما تراها تذكاراً يخبرك أنك كنت الأوفى!

النّصرُ أن تعيدهم غرباء كما كانوا،

مجرد أشخاص التقيت بهم في مطارٍ بُرهةً،

ثم لكَ وجْهتكَ ولهم وجهتهم،

النّصرُ أن تُحولهم من مرتبةِ أشخاصٍ هم كل العالم،

إلى مرتبةَ مُجرد أشخاصٍ في هذا العالم!

6

هذه الدُّنيا قاسيةٌ وتطحنُ العظم،

وما منا من أحدٍ إلا وفيه جرح غائر،

يحاولُ جاهداً أن يواري سوأته!

ولو اطلعنا على جروح بعضنا التي نحاولُ أن نُخفيها،

لتعانقنا بدلَ أن نتصافح!

جميعنا والله نستحقُّ العزاءَ من جُرحٍ ما!

وأسوأ ما في الجروحِ أننا لا نعرفُ متى تنفلت منا،

ولكني أعتقدُ أن الإنسان يميطُ اللثام عن جرحه حين يأمن،

ويُخيّلُ إليّ أن أحدنا يمضي حاملاً جرحه،

باحثاً عن لحظة طمأنينة ليلقيه عن كاهله!

منّ اللهُ عليّ بحج بيته هذا العام،

وفي مِنى التقيتُ صُدفةً بصديقٍ لي،

ذهبَ كل منا إلى الحج في حملة،

وصادف أن تكون خيامنا هناك متقابلة،

تصافحنا بحرارةٍ، وتعانقنا،

ثم قلتُ له: ما رأيك بكوب شاي؟

رحّبَ بالفكرة جداً، فتركته ودخلتُ إلى الخيمة،

وأعددتُ كوباً لكل منا، وخرجتُ لأناوله كوبه،

وفي اللحظة التي ناولته فيها كوبه،

مرَّ بنا حاج من السودان في الخامسة والستين من العمر تقريباً،

فاعتقدَ أني أقوم بتوزيع الشَّاي؟

قلتُ له: لا، ولكن تفضَّل خُذ كوبي، سأصنعُ غيره،

مددتُ يدي إليه بلطفٍ، ومدَّ يده كذلك،

ثم لم أشعر به إلا وقد عانقني وأخذ يبكي!

رَبَتُّ على كتفه، وقلتُ له: لا عليكَ يا عم،

ثم تركنا ومضى، أما المشهد فما زال عالقاً في قلبي،

كوب الشاي لا يستوجبُ عناقاً، ولا يثيرُ البكاء،

ولكن هذا الإنسان مجروح لا شك،

وعند أول لحظة لطفٍ انفلتَ منه جرحه!

الإنسانُ يبوحُ بجرحه حين يأمن لا حين يُحققُ معه!

وكلُّ من كشفَ لكَ عن جرحه،

فإنما لمسَ فيكَ شيئاً من الطمأنينة،

الجروح كالمجالس بالأمانات، فلا تخُنْ الأمانة!

نحن في لحظات الطمأنينة الأولى أضعف ما نكون،

إننا نخلعُ دفاعاتنا التي كنا نرتديها طوال الوقت،

ونصبحُ مكشوفين تماماً، بلا تلك القشرة السميكة التي كنا،

نُغلّف فيها أنفسنا لنحمي هشاشتنا من الداخل!

لهذا تجدنا نخلطُ كثيراً بين الأشياء،

من جوعنا للحُب نُفسّر أي اهتمام على أنه حُب،

وأي لُطف على أنه طلب يد للخطوبة،

والأمر ليس كذلك أبداً!

الجفاف العاطفي مقتل، مقتل بالمعنى الحرفيّ للكلمة،

كلنا فينا جوع للحُب، ونتضوّرُ انتظاراً له،

لهذا إن لم نجده اخترعناه!

أو بتعبير أدق توهّمناه!

نحن حين نعيشُ جفافاً عاطفياً،

نكون فرائس سهلة لأولئك الذين يبحثون عن العلاقات العابرة،

وحتى إن لم يكونوا من هذا النوع،

فإن الجفاف العاطفي سيّد التأويلات التي لا علاقة لها بالواقع،

إنه يُفسّرُ كل كلمةٍ لطيفةٍ على أنها رسالة حُب!

في الجفاف العاطفي قد نعتقد أن كلمة صباح الخير،

هي نفسها: أنا أحبك!

وكيف حالك؟

هي نفسها: لقد اشتقتُ إليك،

وكم عمرك؟

هي نفسها: أنت في سن مناسبة للزواج!

إن أسوأ ما في الجفاف العاطفي،

أنه يجعلنا نرى الأشياء كما نريدها، لا كما هي فعلاً!

ثم ننساقُ خلف هذه التأويلات الواهمة،

ونخسرُ هؤلاء اللطفاء الذين دخلوا حياتنا،

ولكن ليس بهذه الصورة الشخصية التي توهّمناها،

وبهذا نحصل على جرح جديد،

نحن الذين حفرناه في أنفسنا هذه المرّة،

فانطبق علينا مثل العرب الشهير: بيدي لا بيد عمرو!

على أنّ الجفاف العاطفي ليس بالضرورة وليد جرحٍ ما،

يكفي عدم الحصول على الحُب من مصدره ليولد!

الزّوجة التي لم تسمع كلمة غزلٍ كما تشتهي،

ولا تحصل على الهدايا أبداً،

هي امرأة يُهال التراب على أنوثتها كل يوم،

لهذا ليس مستغرباً أن تُفسّرَ أي كلمة على أنها حُب،

أو أن تكون صيداً سهلاً لمن يصطاد في الماء العكر،

طبعاً كل هذا ليس مبرراً للعلاقات الحرام،

الحرام لا يُبرره الحرمان أبداً،

ولكن الحرمان يجعله سهل الوقوع،

ونحن نريدُ إبعاد مصادر اللهب،

لأن هذا أيسر من معالجة إطفاء النيران!

والزوج الذي لا يحصل على الاهتمام والتقدير،

هو صيد سهل لامرأة أخرى تهتمُ به،

وطبعاً هذا ليس مبرراً للحرام أيضاً،

ولكننا نهاية المطاف ضعفاء نجابه أنفسنا وشيطاننا!

والبنت التي تُعامل بقسوةٍ في البيت،

هي فريسة مكشوفة خارجه!

نحن حين نُغدقُ الحُب والاهتمام على من حولنا،

نحصنهم جيداً من الوقوع في فخ اللطف العابر،

الوقاية خير من العلاج،

ونزع فتيل الأشياء القابلة للانفجار،

أيسر من لملمة الخراب الذي يُحدثه الانفجار!

7

في الحديث النبويّ الشّريف:

«لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامةِ حتى يُسأل:

عن عمره فيمَ أفناه؟»

لن تُسأل عن عمركَ فقط،

وإنما عن أعمار الناس التي أهدرتها!

عن كل كلمة «أحبك» قلتَها من لسانك لا قلبكَ!

وعن كل طريقٍ مشيتها مع أحدٍ،

دون رغبةٍ جادّةٍ منك في الوصول!

عن كل يد أمسكتَها وفي خاطركَ أن تتركها!

وعن نهار أحدهم قلقاً منكَ لأنك لا تؤتمن،

وعن ليل أحدهم باكياً غدركَ لأنْ لا أمان عندكَ،

وعن أيام الناس التي ذهبث سُدىً لأنك تريدُ أن تتسلى،

وعن الوعود الزائفة،

وعن كل شمعةٍ أوقدتها في قلب أحدهم ثم أطفأتها،

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

8

في «المُختار من نوادر الأخبار»،

أنَّ رجلاً دخلَ على سالمِ بن قُتيبة بن مسلم الباهلي يسأله عن حاجة،

وسالم جالسٌ على الأرض،

فوضعَ الرجلُ سيفه وهو في غمده على إصبعِ سالم وهو لا يشعر،

واتكأ عليه، وجعلَ يطلبُ حاجته،

إلى أن نزفَ إصبع سالم ولكنه لم يُكلمه،

فلما انتهى الرجلُ من مسألتِه، وقضاها له، وخرج،

جعلَ سالمُ يمسحُ الدمَ عن إصبعه، فقالوا له: لِمَ لَمْ ترفع السيف عن إصبعك؟

فقال: خِفْتُ أن أفعل، فيخجل الرجلُ من فعلته، وينسى حاجةً من مسألته!

عندما يأتيكَ إنسان في حاجةٍ فاعلمْ أنه طلبها من الله أولاً،

فأرشده سُبحانه إليك، وجعلكَ سبباً في إجابةِ الدعاء،

فلا تنظُرْ في شأنِ من تقضي حاجته فقط،

وإنَّما في الذي أراد أن يتكرمَ عليكَ ويجعلكَ سبباً في قضاءِ حوائجِ الناس!

وعندما تتصدَّقُ على فقير، فاعلمْ أنكَ تحتاجه أكثر مما يحتاجك،

فهو يحتاجكَ في دُنياه، وأنتَ تحتاجه في آخرتك،

وما أنتَ إلا جامع مال، إمّا لكَ أو لورثتك، وإنَّه ليسَ لكَ إلا ما أبقيتَ،

وإنَّ أجمل ما قِيل في الصدقة:

هي ادِّخارُ أموال الدُّنيا للآخرة، فأنتَ لا تستطيع أن تصحبَ مالكَ إلى القبر،

ولكنكَ تستطيع أن تجعله ينتظركَ هناك!

لكلِّ شيءٍ أدب، والعطاءُ شيءٌ من الأشياء، وله أدب أيضاً،

وهو حفظُ ماء وجه الطالب!

فالناسُ قبل أن يكونَ لديهم حاجات فإنَّ لديهم كرامات،

وترميمُ كرامة الإنسانِ لا تقل نُبلاً عن ترميمِ حاجته!

إنَّ الذي يطلبكَ في حاجةٍ في نفسه انكسار وإن لم يُبدِهِ لك،

وفي روحه حزنٌ وإن أخفاه عنك،

فلا تكُنْ والدُّنيا عليه،

أشعره بالدفء، لِنْ له بالكلام، وابسط له وجهك، وزيِّن المجلس بابتسامتك،

الحاجةُ مُرَّةٌ ولا يُخفف مرارتها إلا حُسن الأسلوب في أدائها!

وتذكَّرْ دوماً أن الجزاء من جِنسِ العمل، ولا أحد أوفى من الله!

من لانَ للناس ألانَ اللهُ له قلوب الناس!

ومن قضى حوائجَ الناسِ قضى الله له حوائجه على أيسرِ السُبُل!

9

انتظرتُ الثلثَ الأخيرَ من الليلِ،

لأدعوَ عليكَ،

وفي السُّجود غلبني قلبي،

ووجدتني أدعو لكَ!

بالسَّعادة والهناء، والخروجِ الآمِنِ من قلبي،

فأما الخروجُ الآمِنُ قد تحقق،

لم يعدْ لكَ متسعٌ في هذا القلب،

وأما سعادتُك وهناؤكَ، فهذه قصتها عندكَ،

وليس عندي فضول لأسمعها،

أنا لا تستهويني قصص الغرباء!

10

يروي الأوروبيون في حكاياتهم الشعبيّة،

أنّ ضفدعةً رأت ثوراً فغارت من حجمه،

وهي التي بطولها وعرضها لا تزيدُ عن حجمِ البيضة!

فراحت تتمدد، وتُجهِدُ نفسَها، وتنتفخ، في مُحاولةٍ يائسةٍ لتصير بحجمِ الثور!

وقالت لجارتها: أنظُري إليّ يا أُختاه، هل كبرْث، هل هذا المقدار يكفي؟

فقالت لها: لا استمري بنفخِ نفسك.

تابعت الضفدعة نفخَ نفسها، وقالت لجارتها: ما رأيك الآن؟

فقالت لها: لا، لم تبلغي حجمَ الثورِ بعد، حاولي أكثر!

وبقيت تُحاولُ حتى انفجرت!

إن لم يكُن للرِّضى على قَدَرِ الله إلا الراحة التي يجدُها المرءُ فكفى بها نعمة،

وإن لم يكُن للسخطِ على قدرِ الله إلا الشقاء الذي يجدُهُ المرءُ فكفى به نقمة!

إنّ الله سُبحانه وتعالى جعلَ هذه الدُنيا دار امتحان لا دار جزاء،

وقد اقتضت حكمته أن يُوزّعَ الأرزاقَ بين الناسِ

بالتفاوتِ،

ليرى سُبحانه ماذا يفعلُ المرءُ بما أُعطي، أيشكرُ أم يكفر،

وليرى ماذا يفعلُ من حُرِمَ أيصبرُ أم يفجر!

فالله تعالى حين خلقَ الفقير لم يجعله فقيراً عن قلة،

فبيده سُبحانه مقاليد السماواتِ والأرض، ولكن امتحان بعض الناسِ في الفقر!

وحين خلقَ إنساناً قبيحاً، أو مريضاً فهو لم يخلقه هكذا عن عجز،

فسُبحان من أبدعَ خلق كل شيء، ولكن امتحان بعض الناس في الدَّمَامَةِ والعجز!

ما منا من أحدٍ إلا وقد أُعطِيَ أشياء وحُرِمَ من أُخرى،

هذه الدنيا لا تكتمل لأحد، ولكننا نحسبُها كذلك،

وكلٌّ منا يعتقدُ أن امتحانَ الآخرين أسهل من امتحانه!

من قضى حياته ينظرُ إلى ما في أيدي الناس،

فلن يجدَ وقتاً لينظر إلى ما جعلَ اللهُ في يده،

وسيعيشُ وطعم الحرمانِ مُر في فمه وقلبه!

ومن عرفَ أنها أقدار مكتوبة، وأرزاق مقسومة، رضِيَ عن الله، ورضِيَ اللهُ عنه،

وتذكَّروا أن أكثرَ أهل الأرضِ شقاءً سيُغمسُ يوماً في

الجنةِ غمسةً واحدةً،

ثم يُقالُ له: هل رأيت بؤساً من قبل؟

فيقول: واللهِ ما رأيث بؤساً قط!

وأن أكثر أهل الأرض نعيماً سيُغمسُ يوماً في النارِ غمسةً واحدة،

ثم يُقالُ له: هل رأيت نعيماً من قبل؟

فيقول: واللهِ ما رأيث نعيماً قط!

فاللهم ارزقنا في الدنيا الرضى على قَدَرِك،

وفي الآخرةِ الجنةَ عوضاً عن دنيا خُلِقَت ناقصة فلم تكتملْ لأحد!

تقولُ الأسطورة:

إنَّ العقربَ جلس طويلاً على ضفة النَّهر،

ينتظرُ من يُقلّه إلى الضّفةِ الأخرى،

وقد طال انتظاره دون جدوى،

إذ رفض الجميع نقله لأنهم كانوا يعرفون أنه يلسع،

وعندما مرَّ الضفدعُ من أمامه،

قال في نفسه: لا ضيرَ أن أحاول مع هذا الضفدع،

فقال له على الفور: أيها الضفدع الطيب،

هلاَّ تحملني على ظهركَ حتى أبلغ الضفة الأخرى،

فقال له الضفدع: أمجنونٌ أنا حتى أحملكَ على ظهري فتلسعني؟!

فقال له العقرب: كيف ألسعُكَ وأنا على ظهرك في وسط النهر،

فإن متَّ أنت غرقتُ أنا!

اقتنعَ الضفدع بكلام العقرب، ودنا منه ليحمله على ظهره،

ولما صارا في منتصف النهر، غرزَ العقربُ إبرته في جسد الضفدع،

وأعملَ سَمَّه فيه!

فقال له الضفدع وهو يلفظُ أنفاسه الأخيرة:

لمَ قتلتني وأنت تعلمُ أنك ستموتُ معي؟

فقال له: الغدرُ طبعي، والطبعُ غالب!

عليك أن تعرف أن الغادر حين يغدر،

فإنه يفعلُ هذا لأنَّ هذا طبعٌ فيه،

فأسوأ ما يحاولُ الغادرون فعله،

هو إقناع المغدورين أنهم السبب،

وأن غدرهم لم يكن إلا ردة فعل،

بينما في الحقيقة أنه لا شيء يُبرر الغدر،

حتى الجرح لا يُبرره،

إن النبيل إذا جُرح، ولملمَ جرحه ومضى،

إذ أنه يرى أنه لو خسرَ شخصاً،

فهذا ليس مبرراً أن يخسر احترامه لنفسه!

إنَّ الحوادث لا تُغيّر في الطباع،

وإنما تكشفها فقط!

إنها تُسقطُ الأقنعة، فتظهر الوجوه الحقيقية،

لن يأتي إليك أحدٌ مُعرِّفاً عن نفسه قائلاً:

مرحباً، أنا حقير وغادر!

ستأمن أولاً، وتكشفُ عن مكامن الضعف فيك،

ثم ستتلقى الضربة!

فإياك أن تلومَ نفسك، وتبحثَ عن السبب فيك،

أنت إنسان طبيعي جداً وإن غُدرتَ

أمِنتَ لأن الذي يُحبّ يأمن

ووثقتَ لأن العلاقات بلا ثقة جحيم،

وكشفتَ عن مكامن الضعف فيك

لأنَّ المُحبّ يخلعُ عنه كل دفاعاته!

ليس عليكَ أن تشعرَ بالعارِ لأنك الضحيّة،

العارُ هو للجلاد فقط!

والطِيبةُ وإن كانت نتائجها وخيمة، فليست خطأ!

الخطأ هو خطأ القُساة فقط!

وليس عليكَ أن تشعر بالخزي لأنك فتحتَ الباب،

الخزي هو للذي طرق الباب بنية العبث!

12

إذا أردتَ أن تتخلّصَ من علاقةٍ،

بأخفِّ الأوجاع وأيسرِ الطُّرق،

فأغلِق دونها كل الأبواب والنوافذ،

لا تسترق النَّظر، ولا السَّمع،

أتركهم لحياتهم، وامضِ لحياتكَ،

تعاملْ مع الأمر كما تتعامل مع الموتى،

تهيلُ الترابَ على الميت، وتديرُ ظهركَ،

ولا تعود كل يومٍ لترى حاله في البرزخ،

دعهُم في برزخهم،

وامضِ، فلا شيء يُؤذي أكثر من الالتفات إلى الوراء!

في القرن الثاني عشر هاجمَ المغولُ بقيادةِ «جنكيز خان» الصين،

واحتلُّوا مدناً كثيرة، وكانوا كُلّما احتلّوا مدينةً أبادوا سُكانها،

وكان «جنكيز خان» همجياً لا يُقَدّر قيمة الحضارة،

ولم يكُن يرى في الصين غير بلادٍ شاسعةٍ تصلُحُ لرعي خيوله!

لهذا عزمَ على قتلِ الصينيين جميعاً!

ولكن رجلاً واحداً يُدعى «شو أوستاي» استطاعَ إنقاذ الصين!

لم يكُن صينياً، ولكنه تربّى فيها وأحبّها جداً كأنها بلده،

وكان خارق الذكاء، واستطاعَ أن يصلَ بذكائه إلى مرتبةِ مُستشار «لجنكيز خان»،

اقترحَ أولاً عليه ألا يُدمر المُدن ولا يقتل سكانها،

ولكن أن يحتلّها ويفرضَ جزيةً عليها وبهذا تزداد أمواله!

وعندما توجّهَ «جنكيز خان» إلى مدينةِ كايفنغ،

وتمكّنَ من احتلالِها بعد حِصارٍ طويلٍ، قرّرَ أن يقتلَ الجميع فيها،

ولكن «شو أوستاي» قالَ له: إن أفضل مُهندسي الصين، وحِرفييها،

ومُفكريها قد هربوا إلى المدينة،

وأنه بدلَ قتلهم من الأفضل أن يستخدمَهُم لتوطيدِ أركانِ مُلكه!

ومرةً أخرى اقتنعَ «جنكيز خان» وأظهرَ رحمةً لم تكُن معروفة عنه،

وقرَّرَ الإبقاءَ على حياةِ سكانِ المدينة.

في الحقيقةِ كان «شو أوستاي» يعرفُ بذكائه أن «جنكيز خان»

آخر ما يهتمُ له هو بناء حضارة،

وأنه همجي لا يرتوي إلا بتدميرِ البلادِ وقتلِ العبادِ،

ولكنه كان يعزفُ على وترٍ حساسٍ وجده فيه، الطمعُ لا غيرا!

في كل واحدٍ منا وترٌ حسَّاس!

هذا الوترُ أشبه بمفتاحٍ لبابٍ مُغلقٍ هو الإنسان،

ومن استطاعَ الحصول على المفتاح، كان دخوله إلى صدورِ الآخرين يسيراً،

وإلى إقناعِهِم بفعلِ أمرٍ أو تركه يسيراً!

على سبيلِ المثال، إن الزوجة التي تطلبُ الطلاق

في الغالبِ تتراجعُ عنه حين نعزفُ لها على وترِ أولادها،

ذلك أن الأم مفتاح قلبها هم الأولاد!

لا يُمكنك أن تُقنعَ تاجراً بمشاركتكَ في صفقةٍ

بأن تُخبره أن هذه الصفقة ستجعل المجتمع أفضل،

عليكَ أن تُخبره كم سيربح! وترُ التاجرِ هو الربح لا غير!

البخيلُ عليك أن تُخبره أولاً أنه لن يدفعَ شيئاً،

وسيُوافقُ على الفورِ بالاشتراكِ معك في الفكرةِ دون التدقيق في التفاصيل

حتى لو كانت الفكرة تسلُّق قمةِ «افريست في جبال هملايا» مشياً على الأقدام!

الفكرةُ من هذا كله، معرفةُ مفتاحِ الباب، يُغنينا عن عناءِ خلعه!

14

عندما ينطفئُ الشَّغفُ سيزولُ الانبهار،

ونرى الأشياء على حقيقتها،

ونكتشف أنهم كانوا عاديين جداً،

وأن عيوننا هي التي كانت تُجمّلهم،

الشَّغفُ يصنعُ حول الآخرين هالةً،

تماماً كالهالة المحيطة بالقمر،

جرمٌ ساحرٌ، مضيء، شاعري، يأخذ القلب،

هذا لأنك تراه من بعيد،

أمّا لو قُدّرَ لكَ أن تطأه عن قرب،

لاكتشفتَ أنه ليس إلا قطعةً كبيرة من الركام،

هذا هو الفرق بين أن تشعر، وبين أنْ تعرف،

المعرفة تُنزل الناسَ منازلهم الحقيقية!

في الآدابِ العالميةِ أنّ الجنديّ قالَ للضابط:

صديقي لم يَعُد من ساحةِ القتال، أطلبُ منكَ الإذنَ بالذهابِ للبحث عنه.

فقالَ له الضابط: الإذنُ مرفوض،

لا أُريدكَ أن تُخاطرَ بحياتك من أجلِ رجلٍ من المُحتملِ أنه قد مات!

ولكن الجندي عصى أمرَ قائده، وذهبَ للبحثِ عن صديقه،

وبعد ساعاتٍ عادَ ينزفُ من جرحٍ خطيرٍ أصابه، حاملاً جثة صديقه!

فقالَ له الضابط بغرور: قلتُ لكَ أنه قد مات،

ولكن قُلْ لي أنتَ، أكانَ الأمرُ يستحقُّ كل هذه المُخاطرة؟!

فقالَ له الجندي: أجل كانَ يستحق، عندما وجدته كانَ فيه رمق من حياة،

وقالَ لي: كنتُ واثقاً من أنكَ ستأتي!

ما أجمل أن يكونَ المرءُ عند حُسنِ ظنِّ الناسِ به،

أن يكونَ بحجمِ تلكَ الصورة المرسومة له في العقل،

وتلكَ المكانة المُعطاة له في القلب،

لأنه لا شيء أقبح من الخذلان!

ما أجمل أن يطرقَ صديقكَ بابكَ عندما يقعُ في ضائقةٍ

وكله عشمٌ أنكَ لن ترده، فيجدكَ على مقدارِ العشم!

ما أجمل أن يرسمَ أبواكَ لكَ صورة الابنِ البار،

وأنكَ لن تتركهما في لحظاتِ المرضِ والعجزِ ثم أنتَ تترجمُ هذه الصورة

إلى مواقف ناصعة في البِرا

ما أجمل أن تأتمنكَ امرأة على قلبها في زمنٍ كثُرَ فيه الغدر،

وصارَ الخذلانُ سِمته، فتجدكَ رجلاً على مقدارِ كلمتك،

لم تُقلِت يدكَ، ولم تَهُن عليكَ الأعراض والمشاعر!

ما أجمل أن تكونَ الجار المأمون فعلاً، والأخ الكتف حقاً،

والزوج العكاز صدقاً، والأب السند حُباً!

ما أجمل أن تكون الجهة الآمنة دوماً!

16

نحن نتمسَّك بالأشياء ليس خوفاً عليها،

وإنما خوفاً علينا!

فنحن في الحقيقة لا نخافُ عليهم،

وإنما نخافُ على أنفسنا من دونهم!

فلا ننتبه أنَّ الخوف من خسارة الأشياء،

يجعلنا نخسرُ أنفسنا!

والحرص الزائد على عدم كسر العلاقات،

يكسرنا نحن كل يوم،

ولكن في اللحظة التي نُقرر فيها أن نترك،

في اللحظة التي نفلتُ فيها أيدينا،

سنكتشفُ أن حبل الإمساك لم يكن يبقيهم معنا،

بقدر ما كان يخنقنا،

أول شعور بالراحة بعد التَّرك سيجعلنا نسأل:

لماذا تمسكنا كل هذه المدة؟!

يُبتلى المرءُ أحياناً في قلبه،

وهذا والله من أشد البلاء،

أن يكون لأحدهم كل المتسع في قلبك،

وليس له شبر متسع في حياتك!

أن تراه الرئة التي تحتاجها لتتنفس،

ولكن شاءت الأقدار أن تختنق من دونه،

أن تراه العين التي تحتاجها لترى،

ولكن تحرمكَ الحياة إياه،

فتمضي عمركَ كله كالأعمى تتحسس طريقكَ!

فلا هو قريبٌ لتلقاه، ولا بعيد لتغادره،

ولا الطريق إليه معبّدٌ لتأتيه، ولا وعِرٌ لتفارقه،

ليس لكَ، لتطمئنّ، ولا ممنوعاً عنكَ لتخاف،

لا الأرض ضيقة لتجمعكما، ولا واسعة لتفرقكما،

ولا إن مشيتَ إليه تصل، ولا إن جلستَ مكانك تبتعدُ!

لا هو بالذي يُنسى، ولا أنتَ بالذي تتذكر،

هكذا هي الأمور شائكة،

لا المنطق يملي على القلب منطقه،

ولا القلب يُقنع المنطق بضعفه،

وهذه والله لا هي حياة، ولا هي موت،

ولكنَّ المرء يُبتلى في قلبه!

ولعلكَ تسألُ نفسكَ الآن: أأنا الوحيد؟

لستَ وحدكَ!

ذاقَ مُرَّ هذا التعلق قبلكَ، ومعكَ، وبعدكَ الملايين،

وتعالَ معي أُريكَ شيئاً من هذا البلاء،

نحن الآن نسيرُ في شوارع المدينة المنورة،

والنبيُّ ﷺ يقولُ لعمِّه العباس:

يا عبّاس، ألا تعجبُ من حُب مُغيثٍ بريرةً، ومن بُغضِ بريرةِ مُغيثاً!

أما عن مناسبة هذا الحديث الذي دار،

فإن بريرة كانت أمةً مملوكة كحال الكثيرات ذاك الزمان،

وكان لها زوج اسمه مُغيث،

وقد عاشا معاً، وأنجبا أولاداً،

ولكنَّ بريرة لم تكن تُحِبُّ مُغيثاً أبداً!

واشتاقت بريرة إلى الحرية والعِتق، وفاتحت أسيادها بهذا،

فقبلوا بذلك مقابل مبلغ محددٍ من المال تدفعه لهم،

وتشتري به حريتها،

وقصدت أمنا عائشة لتعينها ببعض المال،

ثم أخيراً صارت بريرة حُرَّة، أما زوجها فبقي عبداً،

والإسلامُ يُعطي الخيار للمملوكة إذا صارت حُرَّة،

بين أن تبقى معَ زوجها المملوكِ أو تفارقه،

فاختارت بريرة فراق زوجها،

ولم يحتمل مغيث هذا الفِراق،

وكان يمشي خلفها في طرقات المدينة باكياً،

يرجوها أن ترجعَ إليه!

ولكنها لا ترأفُ بحاله، ولا تعبأ به،

ولما يئس من مناشدتها، وبقيَ حبها في قلبه،

قصدَ النبيَّ ﷺ طالباً منه أن يشفعَ له عندها،

فذهبَ النبيّ ﷺ إليها وقال لها:

يا بريرة، لو راجعته فإنه زوجكِ وأبو ولدكِ،

فقالت له: يا رسول الله، أتأمرني؟

فقال: إنما أنا شافع،

فقالت: لا حاجة لي فيه!

اتفقنا على أن الحُب من طرفٍ واحدٍ من أشد البلاء،

وأنه يحدث أنْ لا يملك المرءُ زمام قلبه،

ولكن لا ينبغي على الإنسان أن يُفرّط في كرامته،

أطرق الباب بأنامل الحُب،

فإن لم تجد إجابةً فلا تتسوله!

على المرء أنْ لا يُريق ماء وجهه مهما حدثَ،

أنتَ الوحيد الذي ستبقى لنفسك،

ومن حق نفسكَ عليكَ أنْ لا تذلها!

إذا كان بإمكانكَ أن تجمع بين المُحبين فلا تتردد،

فإن هذا من جبر الخواطر، ومكارم الأخلاق!

كسر القلوب أليم، وإن لم يُحدث صوتاً،

ولا شيء أقسى من أن يمضي المرءُ عمره،

هو في مكان، وقلبه في مكان!

نعم تحولُ الأقدار بين المحبين،

ولكننا جميعاً نعلمُ أن قلوباً كثيرة وُئدت،

فقط بسبب العناد، ويباسة الرأس!

ولكَ أن تتخيلَ أن عمر بن الخطاب الشديد الحازم،

قد قال يوماً متوجعاً على فراق الأحبة:

لو أدركتُ عروة وعفراء لجمعتُ بينهما!

وحتى إن لم يكن الجمع بين المحبين بيدك،

فإنّ بيدكَ السّعي، ونحن نُؤجر على السّعي والنوايا،

بغض النظر عما كانت عليه النتائج،

وها هو نبيُّ الأمة قد سعى لجبر قلب إنسان،

فتشبه به!

ولا يدخل عليكَ الشيطان من باب الكرامة،

وأن شفاعتكَ سوف تُرفض، وأن موقفك سيكون محرجاً،

لا حرج أبداً في بذر الخير وإن لم يُثمر،

وما وجدَ النبيّ ﷺ حرجاً، في أن شفاعته لم تُقبل،

أراد أن يعلمنا أن ننوي الخير، ونسعى إليه،

وفي نهاية المطاف فإنَّ قدر الله واقعٌ لا محالة،

واقع بالسَّعي أو بدونه،

ولكننا نتعبدُ الله تعالى بالسَّعي إلى الخير،

وكم من ساعٍ لم يبلغ سعيه، ولكنه بلغَ الأجر كاملاً،

ذاكَ أنه قد وضعَ الله نُصبَ عينيه!

في العودة من غزوة تبوك،

قال النبيُّ ﷺ لأصحابه:

إنَّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً،

إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض!

نالَ هؤلاء الأجر بالنية من دون سعي حتى!

والذي قتلَ مئة نفسٍ، خرج من بيته مهاجراً، إلى الله،

ولكنه مات قبل أن يبلغ قرية الصالحين،

فكان رغم عدم الوصول من أهل الجنة،

كان الله ينظرُ إلى قلبه، ويعلمُ مُراده،

لذلكَ بلَّغه أجر الواصلين وإن لم يصل!

ثم تُقرر أخيراً أن تختارَ نفسك،

لن تتعلق أكثر لأنك عرفتَ أن القشَّة لا تُنقذ الغريق!

وأن السَّفينة المثقوبة لا تصلح للإبحار،

وأنها فخٌ من فِخاخ الموت أكثر منها راحلة للسفر!

ستقفُ على قدميك وإن كان كل شيء حولك،

يدعو للارتماء!

ستبدو ثابتاً وإن كان في القلب عاصفة تدعو للارتجاف!

ستعطي كل شخص ما يستحق لا أقل ولا أكثر،

ستغادر المكان الذي لم يتسع لك،

ستنظرُ في عين الذي استخفَّ بكَ،

وتقول له: لقد سئمتُ منكَ،

ثم ستخلو بعدها بنفسك مستغرباً،

هذه القوة التي حلَّت بكَ،

لا تستغرب هذه قوة كرامتك!

يروي «بيدبا» فيلسوفُ الهندِ الشهير في كتابه «خُرافات»،

أنَّ حماراً فقدَ ذيله، وكانت تلك مُصيبة أليمة الوقعِ عليه، ومُحزِنة!

فراحَ يبحثُ عن ذيله في كلِّ مكان، فقد بلغَ به حمقه،

أنه اعتقدَ أنه إذا عثرَ على ذيلِهِ المقطوع فسيُعيدُ تركيبه مكانه!

وأثناء بحثه عن ذيلِه المفقود، دخلَ بستاناً، ومشى فيه على غير هدى،

فكانَ يطأُ المزروعاتِ ويُتلِفُها، ويصطدمِ بنباتِ الذرةِ فيطرحها أرضاً!

وعندما رآهُ البستاني جُنَّ جنونه، فحملَ سكيناً، وتوجَّهَ إليه بسرعة،

وقطعَ له أذنيه، وأخرجَه من البستانِ بالضربِ والرَّكل!

وهكذا فإنَّ الحمار الذي كان يندبُ ضياعَ ذيله من قبل،

صارَ عليه الآن أن يندبَ ضياعَ أُذنيه أيضاً!

على المرء أن يتقبلَ خساراته،

وأن يعرفَ أن بعضَ الأمورِ لن تعودَ إلى سابِقِ عهدها مهما حاول،

وتقبُّلُ الخسارةِ ثقافةٌ ونُضجٌ من لم يتحلَّ بها سيبقى يتجرَّعُ مرارةَ الخسارةِ كل يوم!

علينا أن نعلمَ أن الحياة ليست حرباً، وإنّما هي عدة معارك،

وأن خسارةَ معركة لا تعني أبداً خسارة الحرب،

ولكن الإنسان إن بقيَ يندبُ خسارةَ معركة واحدة،

فسينتهي به الأمرُ أن يخسرَ الحربَ كلها، أي حياته!

تقبلُ الخسارة، وفهمُ الواقعِ ومُعطياته، أفضل من العيشِ في الوهم،

لأن الإنسان الذي يفهم أن الفشل مرّةً هو درس،

عليه أن يتعلمه ثم يطوي الصفحةَ، غالباً ما يُحققُ نجاحاً بعد ذلك،

وفي هذا يقولُ نيلسون مانديلا: أنا لا أخسر أبداً، إما أن أربح أو أتعلم!

في غزوةِ مؤتة استشهدَ قادةُ الجيشِ الثلاثة،

الذين جعلهم النبيُّ ﷺ على رأسِ الجيش،

زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة

ارتقوا في سبيلِ الله في الساعاتِ الأولى للمعركة،

فلم يجد المسلمون أقدر من خالد بن الوليد،

لتوليتِهِ أمر الجيشِ وكان حديث العهدِ بالإسلام!

نظرَ خالد في موازين القوى، وعرفَ بحنكته العسكرية،

أن الاستمرار في القتال هو انتحار،

فدبَّرَ خطةَ انسحابٍ ما زالت حتى اليوم تُدرَّس في الكلياتِ العسكرية!

وعندما عادَ الجيش إلى المدينةِ قالَ لهم الناس: أنتم الفُرَّار أي الهاربون!

فقالَ لهم النبيُّ ﷺ: بل أنتم الكُرَّار، أي الفُرسان الشجعان.

كان نبياً يفيضُ بالحكمةِ، وفهمِ الواقع!

لحظةُ فهمٍ من خالد للواقع، انسحابه التكتيكي

هو الذي حمى جيشَ المُسلمين من الإبادة!

فتقبَّلوا خساراتِكُم!

20

ما دامت الأشياءُ لا تخدش كرامتي،

ولا تكسرُ كبريائي،

فأنا أتمسّك!

أما في اللحظة التي أهانُ فيها،

فإني أفلتُ إفلاتاً لا إمساكَ بعده،

ولم يحدث أبداً أن سقط مني شيءٌ،

ثم انحنيتُ لألتقطه،

لطالما كانت كرامتي أكبر من قلبي،

وهذه من أكثر الصفات التي تُعجبني في نفسي!

يروي «الداغستانيون» في حكاياتهم الشعبية،

أنَّ هراً قد تسلَّطَ على قريةِ الفئران،

وكانَ كل يومٍ يقتلُ منهم أكثر من عشرة، حتى كادت الفئران تفنى على يديه!

واستغلَّ الفئرانُ جلوسَ الهرِ مع حبيبته الهرة،

وعقدوا اجتماعاً فيما بينهم، علَّهم يجدون حلاً للمشكلة،

عندها قامَ فأرٌ كبيرٌ في السن، تُلقِّبه الفئران بالحكيم، وقالَ لهم:

إن الهر دوماً يُباغتنا، لهذا هو يملك عُنصرَ المُفاجأة،

الحلُ الوحيدُ أن نعرفَ الوقت الذي سيُهاجمُ فيه، وقد وجدتُ طريقةً لذلك!

قالتِ الفئرانُ بصوتٍ واحدٍ: ما الحلُ أيُّها الحكيم؟

قالَ لهم: هذا جرسٌ مربوطٌ بحبل،

لا نحتاج أكثر من أن يضعه أحدكم حول رقبته عندما ينام،

فإذا قامَ أصدرَ الجرسُ صوتاً فنعرفُ من قَرعِ الجرسِ متى يصيرُ في ناحيتنا!

أُعجِبتِ الفئرانُ بخطةِ الحكيم، وبقيَ أمامها التنفيذ!

وكُلما نظرَ الحكيم إلى فأرٍ يُريدُ أن يُكلفه بهذه المهمة،

وجدَ عنده عذراً!

قالَ فأر: أنا بطيءٌ في الركضِ وسيأكلني الهرُ لا شك!

وقالَ آخر: أنا نظري ضعيفٌ ولا أستطيع عقد الحبلِ حول عنقِ الهر!

وقالَ ثالث: أنا مريضٌ جداً!

وهكذا بقيت الخُطة قيد التنفيذ حتى أفنى الهرُ قريةَ الفئران!

قالوا قديماً: هدفٌ بدون خطة هو مُجرد أمنية!

وأقول: خطةٌ بدون شجاعة التنفيذِ هي بنايةٌ على الورق لا تصلح للسكن،

ورسمة لمركبٍ لا يصلح للإبحار!

نحن لا تنقصنا الخطة في الغالب،

كلنا يعرفُ ما الذي عليه أن يفعله، ولكننا لا نفعله،

لهذا نبقى في أماكننا، كالجالسِ على كرسي هزاز، يتحرك ولا يسير!

نُخاصمُ صديقاً، ثم نتذكرُ أيامنا الحُلوة معه، تزورُنا ذكرياتُنا الحلوة،

فنمشي خطوة إلى الأمامِ ويُرجِعُنا الكبرياء خطوتين إلى الوراء،

وكلما طالَ الوقتُ زادتِ الجفوة، تباً للكبرياء، أقدِموا!

يحصلُ بين أخٍ وأخيه جفاء على شيء من الدُنيا،

والدُنيا كلها لا تستحق، فلا هذا يُبادر ولا ذاك،

ثم إذا ماتَ أحدهما بكاه الآخر، ووقفَ يتقبلُ به العزاء،

ما نفع الدموع بعد فواتِ الأوان،

إن وردةً نضعها في يدِ حي أفضل من باقةٍ نضعُها على قبر ميت!

الحياةُ تحتاجُ إلى جُرأة،

والنفسُ تحتاجُ إلى تأديبٍ وإلى من يحملُها على الحقِ حملاً،

نفوسُنا تُشبهُ الأطفال، إن تركناهم لأمزجتهم لأمضوا الحياة في اللعب،

وإذا أخذنا على أيديهم وأدّبناهم بَنَينَا لهم مُستقبلاً حلواً،

أو على الأقل صنعنا إنساناً صالحاً،

فتحلّوا بالشجاعة!

{يُدَبّرُ الأمْرَ}.

أقرؤها هذه المرّة بقلبي يا الله،

أتحسسُ قدرتكَ وأستشعِرُ ضعفي،

فأبرأُ من حولي وقوتي إلى حولكَ وقوتكَ،

فإنكَ تقدرُ ولا أقدِرُ،

وأسلّمُ لكَ بما تريدُ وإن أوجعني،

فإنكَ تعلمُ ولا أعلمُ،

وأقتنعُ بما قسمتَ لي وإن سوّلت لي نفسي أنه لا يكفي،

فإنكَ تعطي لحكمةٍ وتمنعُ لحكمة،

وأوقنُ أنَّ ما كتبته لي فسيأتيني ولو أفلته،

وما ليس لي لن أناله وإن تشبثتُ به،

فهبني الرضا لأجتاز هذه الحياة قانعاً،

وأرِني ما أعطيتني كثيراً لأسعد،

وقلِلْ في عينيّ ما منعتني لئلا أحزن!

أجمل وصفٍ للحياة: هي أنها تستمر رغم كل شيء!

إنها لا تقفُ لحادثٍ أليم، ولا تتعطل لوقوع مصيبة،

تستمرُ دوماً حُبلى بالأحداث السعيدة والأليمة،

والعاقل من فهِمَ أنه لا فرح يبقى، ولا حزن يدوم،

ومن يعتقدُ أن غاية هذا الكوكب من الدوران،

هو إلحاق الأذى والضرر به،

وأن الليلَ والنهار لا يتعاقبان إلا لإهدائه جروحاً جديدة،

فهذا من أتعس الناس، لأنه أشقى نفسه بيديه،

ولو فهم الدنيا على حقيقتها لأراح واستراح!

انظروا إلى كل الكائنات حولكم كيف تتقبل خساراتها،

وتمضي قُدماً رغم كل شيء،

لأن الحياة لا تقف لا على حدثٍ، ولا على شخص!

تهاجرُ قطعان الثيران في إفريقيا كل عام،

هرباً من موسم الجفاف، وبحثاً عن الماء،

وأثناء هذه الهجرة، التي هو الغرض منها البقاء على قيد الحياة،

يتخطفها الموتُ من كل جانب!

بعض الثيران تقعُ فريسةً للأسود التي تكمن لها،

وبعضها الآخر تنهشه التماسيح في المياه الضحلة،

ولكن القطيع يلملمُ جراحه كل مرة، ويتقبل خسارته،

ويكملُ طريقه حتى يصل إلى وجهته،

ثم إنه في العام التالي يُعيدُ الكرّة،

ذهابٌ وإيابٌ محفوف بالموت والخسائر،

ولكن على الحياة أن تستمر!

تعرفُ الثيران قانون اللعبة جيداً،

تعرفُ إنها فرائس مرغوبة للأسود، وصيد شهي للتماسيح،

ولكنها بالمقابل تعرفُ أيضاً أنها إذا لم تُهاجر فستفنى،

ومن الغريب جداً أن تدرك الثيران بغرائزها،

ما لا يدركه البعض بعقولهم!

ما دامت الحياة مستمرة فالخسائر ستحدث،

وحده الموت هو صافرة النهاية!

ستبقى الحروب تندلع، والحرائق تشتعل،

سيبقى الإنسان غرضة للمرض، والفشل، وفقد الأحبة،

سنحبُ ونُفارق، وسنتعلق وتحترق قلوبنا،

سنربي الأولاد ليتزوجوا، ثم ينتهي بنا المطاف وحدنا،

لا أحد يستطيع أن يُغيّر هذه الأمور،

ولكننا نستطيعُ أن نُغيّر نظرتنا إلى الحياة!

أن نفهم أن الأمور السيئة هي جزء منها،

وأن أمراً سيئاً يحدث لا يعني أن يتوقف كل شيء،

بين فترة وأخرى تسقطُ طائرة،

ولكن الناس لا يكفون عن ركوب الطائرات،

وحوادث السير تقع، ولكننا لا نستغني عن السيارات،

يموث بعض الأولاد، ولكننا لا نتوقف عن إنجاب آخرين،

الأخطاء التحكيمية تقعُ في مباريات كرة القدم،

ولكن اللاعبين لا يعتزلون، ونحن لا نتوقف عن مشاهدتهم!

متى ما فهمنا أن الحياة لا شأن شخصي لها مع أحدنا،

وإنما كانت كذلك قبل مجيئنا، وستبقى هكذا بعد رحيلنا،

استطعنا أن نتعامل معها بواقعية ومنطق!

لستُ أقولُ إنه من فهم الحياة أن يحبَّ المرءُ الخسائر،

ولا أن يجلسَ منتظراً وقوع المصائب،

ما أقوله أنْ نعملَ جيداً كيلا نخسر، وأن نسعى لنعيش سعداء،

ولكن متى وقعتْ الأمور السيئة فعلينا تقبلها،

لا سبيل آخر أمامنا،

لأن الحياة لن تتوقف لأن أحدنا قرر أنها ليست عادلة،

وإن الذي يتعامل مع الحياة،

بعقلية أنه مستهدف منها يصيبه ما أصاب الحيّة!

تقولُ الحكاية:

إن حيّةً دخلت إلى منجرة في الليل،

وكان النجار قد اعتاد أن يتركَ عدته على الطاولة،

وبينما كانت الحية تتجول في المنجرة والظلام دامس،

مرَّت بجسدها الطريِّ فوق المنشار،

مما تسبب لها ببعض الجروح،

أرادت أن تُدافع عن نفسها فعضَّت على المنشار،

ونفثت سمَّها فيه، فجُرحَ فمها،

فاعتقدت أن المنشار عدو متربص بها،

فقامت بلف نفسها حوله محاولةً خنقه كما تفعلُ مع فرائسها،

فتقطعت وماتت!

المغزى من القصة أن أول جرحٍ كان مجرد حادث،

وكان على الحية أن تكمل طريقها،

في اللحظة التي اعتقدت فيها أن المسألة شخصية،

أخذت تُحارب في معركة خاسرة،

وكثيرون منا يتعاملون مع الحياة بمنطق الحية مع المنشار،

يأخذون كل شيء على أنه مسألة شخصية، لا مجرد حادث عابر!

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَستَخرِجَا كَنزَهُمَا﴾

ثِق بالله،

إنَّ في تأخير الأعطيات حكمة، وإن غابت عنك،

بعض الأشياء لو حصلنا عليها باكراً لأضعناها،

إنَّ التوقيت جزء من الإجابة،

ولكن الإنسان عجول!

وفي المنع رحمة، وإن لم تُدركها،

وكم بكينا على أشياء نريدها بشدة،

ثم مضى الوقت فاكتشفنا أنّ الخير كان في أن لا نُعطاها،

مع الوقت ستعرفُ حكمة الله في كل شيءٍ حدث لك،

مع الوقت ستعرفُ أن ما أراده الله لك،

كان خيراً مما أردته لنفسك!

في كتابه «خُرافات مُنتقاة» يروي «لافونتين» القصة التالية:

كانَ رجلٌ عاقلٌ يسيرُ وحده،

فأزعجه شخصٌ أحمق راحَ يرمي الحجارةَ على رأسه،

فالتفتَ إليه، وقال له:

أيُّها الشابُّ العزيز، لقد أجدتَ الرمي، أرجو أن تتقبلَ مني هذه النقود،

فقد عملتَ بمشقةٍ يستحقُ معها أكثر من كلمةِ شُكرا!

ولكن هل ترى ذاك الرجل الذي هناك؟ إنه يستطيعُ أن يدفعَ لكَ أكثر مني، فارمِهِ ببعضِ حجارتك، وستكسبُ أجراً جيداً!

وأغرى الطُّعمُ ذاك الشاب، وهرعَ ليُكرر الإهانة نفسها

للرجلِ الذي ظنَّ أنه سيكسبُ منه مالاً أكثر.

ولكن هذا الرجل كانَ رئيس عمّال شقِّ الطُّرُق،

فأشارَ إلى رجاله أن يُبرحوا هذا الشاب ضرباً،

فانهالوا عليهِ بالضربِ حتى لم يَعُد يقوى أن يسيرَ على قدميه!

وبعيداً عن خُرافات «لافونتين» المُنتقاة،

ففي تُراثنا العربي قصة شبيهة بهذه القصة،

وتدورُ في فلكها، حدثث مع الأحنف بن قيس سيّد بني تميم وحليم العرب!

جاءَ أعرابيٌ فلطمَ الأحنفَ بن قيس على وجهه.

فقالَ له الأحنف: لِمَ لطمتني!

فقالَ له: أعطاني بعضُ الناسِ مالاً، وطلبوا مني أن ألطمَ سيدَ تميم على وجهه،

فقالَ له الأحنف: لقد أخطأتَ، لستُ سيّد تميم، وإنما سيدهم هو حارثة بن قدامة.

وكانَ حارثة رجلاً غضوباً، لا يسكتُ على ضَيم، ولا يحلمُ على جاهل.

فجاءَ الأعرابيُّ فلطمَ حارثة، فاستلَّ حارثةُ سيفه وضربَهُ على يده فقطعها!

وما أرادَ الأحنفُ إلا هذا!

في القصتين درسٌ واحدٌ ألا وهو: وجِّه عدوَّكَ إلى عدوٍّ آخر!

أحياناً نأنفُ من أن ننزلَ إلى مُستوى البعض،

ذلك أن الخصومةَ معهم خسارةٌ بكل حال،

لا إن انتصرتَ عليهم ستجد لذةَ النصر،

ولا إن هُزِمتَ ستستسيغُ طعمَ الهزيمة،

ولكن في الحياة هناك خصم لكل عدو من نفس منزلته،

فإما أن تترفعَ مُطلقاً وهذا الأحب إليّ،

أو لا بأس أن تأخذَ حقك بيدِ غيرك وهذا فيه من الدهاء ما تُرفعُ له القُبعة،

وأراه يُناسبُ أهل السياسة أكثر مما يُناسبُ الناس!

أنا لا أهربُ وإنما أواجه،

أضعُ عيني في عين جرحي وأتركُه ينزف،

دون أن يرفَّ لي جفن!

أنظرُ إلى الصورة ألف مرَّة،

أتركها تجرحني ريثما تصبحُ عاديّة،

أعيدُ قراءة المحادثة التي آذتني،

وأتحسسُ وخزها في لحمي،

أتركها توجعني إلى أن تصبح تافهة ولا تعنيني،

ثم عندما أنتهي من كل هذا،

أخرجُ برجلي اليُمنى أرددُ: غُفرانكَ!

27

يروي «إيسوب» في خُرافاته المُمتعة، أنّ السنديانة قالت يوماً للقصبة:

يا لضعفكِ ولِينك، لو حطّ عليكِ عصفورٌ لانحنيتِ،

ولو مرّت بك نسمة لأحنت رأسكِ!

أنظري إليّ كيف أقفُ قويةً شامخة، أتحدّى أشعةَ الشمس، وأهزمُ الريح،

وما يبدو لكِ عاصفة، هو كالنسيم عندي،

لا شيء أبداً يُمكنه أن ينالَ مني!

فقالت لها القصبة: إن خوفي من الريحِ أقل من خوفك،

فعندما تهبُّ، أنحني حتى تمر، أما أنتِ فليباسِ رأسكِ تتكسرُ أغصانك!

وما كادت القصبةُ تُنهي كلامها، حتى جاءت ريحُ الشمالِ

أقوى وأعتى ممّا تأتي عليهِ عادةً!

انحنت القصبة كالعادةِ مع كلِّ هجوم للريح،

أما السنديانة فكانت تسقطُ غصناً بعد آخر!

أولَ ما خطرَ في بالي عندما قرأتُ هذه القصة

هو قول النبيّ ﷺ: «من يُحرمُ الرفقَ يُحرمُ الخير»!

وقولَهُ بأبي هو وأمي ونفسي والناس أجمعين:

«ما كانَ الرفق في شيءٍ إلا زانه، وما نُزِعَ من شيءٍ إلا شانه»!

الحياةُ مليئةٌ بالمواقفِ التي هي على شكلِ عواصف،

ويجبُ على الإنسان أن ينحنيَ أمامها حتى تمُر،

وهذا من حُسنِ الخُلُق، وأدبِ العِشرة، وطِيبِ الأصل!

تقعُ الخلافاتُ الزوجيةُ في كلِّ البيوت،

ويباسُ الرأسِ في هذه المواقف دمارٌ للأسرة،

وفرقةٌ للقُلوب، ومَجلبةٌ لِلوحشةِ والنُّفور،

العُقَلاءُ يتغاضون، فإنَّ البيوت إنَّما تستمرُ بالتغاضي والتغافل،

لأن كسب المواقفِ في هذه الحالات يعني كسر الطرف الآخر، وتفكيك عُرى الأسرة!

وتقعُ الخلافاتُ في كلِ العائلات،

والذي يسعى فيها لكسبِ الجولةِ دوماً سينتهي به المطاف لأن يكونَ قاطع رحم،

فأي حربٍ هذه أن يُبارزَ المرءُ نفسَه، وأن يغرزَ رمحَه في لحمه!

في الأمورِ التي تتعلقُ بالعقيدةِ والدينِ والمبادئ، قِف كالسنديانةِ

ولو لم يبقَ فيك غصنٌ واحدٌ بخير،

أمَّا في مواقفِ الحياةِ مع الأهلِ والأصدقاءِ والجيرانِ ورفاقِ العملِ فكُنْ قصبةً ليِّنة،

فمن لانَ كثُرَتْ أغصانه،

وإنَّ الله تعالى يُعطي على الرفق ما لا يُعطي على غيره!

في الإياب من غزوة أحد،

جاءت أمُّ سعد بن معاذ إلى النبيِّ ﷺ تعدو،

وسعدٌ آخِذٌ بلجام فرسه،

فقال: يا رسول الله، أمي!

فقال النبيُّ ﷺ: مرحباً بها... ووقفَ لها،

فلمَّا دنت منه، عزَّاها بابنها عمرو بن معاذ،

فقالت: أما إذا رأيتُكَ سالماً فقد هانت المصيبة!

وأنت يا صاحبي، علامَ الحُزن؟!

كل مصيبةٍ سَلمَ منها دينُكَ فلا تعُدُّها في المصائب!

دينك عظمك ولحمك،

لا شيء يستحقُّ أن تحزن عليه إلَّا دينك إذا كُلِمَ،

وعقيدتُكَ إذا تُلِمَتْ!

وعبادتُكَ إذا تضاءلت!

ويقينك بالله إذا خامره الشَك،

وتوكلكَ على الله إذا مسَّه الوهن!

ما عدا ذلك حوادث تجري، وأقدارٌ تقع،

وإنما هي أيام والموعدُ الجنة بإذن الله!

روى ابنُ عساكرٍ في «تاريخ دمشق»، والذهبيُّ في «تذكرة الحُفَّاظ»،

أن الإمام الأوزعي قال: حدَّثني أحدُ الحكماء، فقال:

خرجتُ أريدُ الجهاد، فلقيتُ في الطريق خيمةً،

وإذا فيها رجلٌ قد ذهبت يداه، ورجلاه، وبصرُه!

وإذا هو يرددُ: اللهمّ إني أحمدُكَ حمداً كثيراً يوافي نعمكَ عليّ!

فأردتُ أن أرى حقيقة إيمانه، وصدقَ صبره،

فقلتُ له: على أي نعمة تحمدُ الله، ألست ترى ما صنعَ بك؟!

فقال: لقد وهبني لساناً ذاكراً، وجسداً على البلاء صابراً،

ولو صبّ عليّ ناراً من السماء فأحرقتني، ما ازددتُ له إلا حُباً،

وإني لي إليكَ حاجة، فهل أنتَ قاضيها لي؟

قلتُ له: على الرَّحب والسّعة،

فقال: لي ولدٌ كان يتعاهدني للوضوءِ عند صلاتي،

وبالطعامِ عند إفطاري، وقد فقدته منذ البارحة،

فهلا تبحثُ عنه، وتأتيني بخبر منه،

فخرجتُ في طلب الغلام، ولما صرتُ بين كُثبان الرَّمل،

إذا بسبعٍ قد افترسه، وهو جالسٌ يأكلُ منه!

فقلتُ: إنا لله وإنا إليه راجعون، كيف أخبره؟

فألهمني اللهُ أن أبدأه بالعزاءِ قبل الخبر،

فأتيته فسلَّمتُ عليه، فردّ السَّلام،

فقلتُ: إني سألتكَ عن شيءٍ، أتخبرني به؟

قال: إن كان عندي منه عِلم أخبرتُكَ!

قلتُ: أنتَ أكرم على الله منزلةً أم أيوب عليه السّلام؟

قال: بل أيوب، أكرم على الله مني، وأعظم منزلةً.

قلتُ: أليس الله تعالى قد ابتلاه فصبرَ،

حتى استوحشَ منه من كان يأنسُ به؟

قال: بلى.

قلتُ: فإنَّ ابنكَ قد افترسه السَّبع!

فقال: الحمدُ لله الذي جعلَ في قلبي حسرةً من الدنيا،

ثم شهقَ شهقةً، فمات!

فجعلتُ أبحثُ من يعينني على غسله وتكفينه،

فبينما أنا كذلك، إذا برجالٍ خرجوا للجهاد كحالي،

فناديتُ عليهم، فأقبلوا، وحدّثتهم بخبره، فدعوا له،

وقاموا معي، حتى غسلناه ودفناه،

فرأيته في تلك الليلة في المنام في الجنة عليه ثياب

خُضر،

فقلتُ: أليس أنتَ صاحبي؟

قال: بلى.

قلتُ: فما الذي أنزلكَ هذه المنزلة؟

فقال: هذه منزلةُ الصَّابرين في البلاء، الشَّاكرين في الرَّخاء،

يقول الأوزاعي: فما زلتُ أحبُّ أهلَ البلاء مُذ حدَّثني الحكيم بهذا الحديث!

ليس هناك عملٌ أحبَّ إلى الله من الرِّضى عن قضائه،

أن يتأدَّبَ العبدُ معه،

أن يعرفَ أنه مهما أبتليَ فهو عبد،

وأن الله تعالى مهما ابتلى فهو ربّ،

والعبدُ لا يكون إلا في رضى سيده!

وما وصل إلى الله إلا الذين انعقدَ هذا الإيمان في قلوبهم،

أُصيبَ أعرابيٌ في زرعٍ لم يكن له غيره،

وكان بأرض قفر بعيدة، فرفع يديه إلى الله يقول:

يا رب، اصنعْ ما شئتَ، فإنّ رزقي عليكَ!

وضربتْ صاعقةٌ شِياه أعرابيّة،

فلم يبقَ عندها شاة واحدة منها،

فقالت: إنَّ مصيبة تخطتني إلى شياهي،

لمصيبة تستحق الحمد، لكَ الشكر يا رب!

هذه هي الدنيا، دار بلاء، وكدر، ومشقة،

فيها عطاء، وفيها أخذ،

فيها عافية، وفيها مرض،

فيها أمن، وفيها خوف،

فيها اجتماع، وفيها فُرقة،

والسَّعيدُ فيها من كان مع اللهِ على كل حال،

إذا نزلَ به ما يُحِبُّ، شكرَ،

وإذا نزلَ به ما يكره، صبرَ،

ارضوا بأقدار الله، فإن السخط لا يُغيرها،

ولكنه يجمعُ عليكَ مرارة الدنيا، وخسران الآخرة،

واللهِ، ثم والله، أني زرتُ مئات المرضى،

فرأيتُ منهم صبراً عجيباً، ورضىً عن الله يخجلُ المرءُ من نفسه حين يراه،

ولكنَّ حدثاً لا أنساه ما حييت،

ما زلتُ كلما تذكرته يعتصرُ قلبي ألماً له،

زرتُ مرةً مريضاً كبيراً في السِّن،

فجلستُ أصبره، وأقول: إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه،

فقال لي بفجور: يا أخي بالناقص من هذه المحبّة!

مات هذا الرجل بعدها بأيام،

ولستُ أتألى على الله، وأمرُ الناس جميعاً إليه،

وأسأله برحمته التي أعرف أن يغفر له ويرحمه،

ولكنها والله لمصيبة، أن يلقى العبدُ ربَّه وهو ساخط على قضائه!

في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر:

أنَّ هِنداً زوجة عُبيد الله بن زياد،

لما ماتَ قالت:

إني أشتاقُ إلى القيامة لأرى وجهه!

وعلّقَ ابن عساكر قائلاً:

وهذا أبلغ ما قيل في الشَّوق!

أما أنا فأقول لك:

إنَّ في الجنّة عزاءً عن كل حرمان ذُقناه في الدنيا،

في الجنة سنشبعُ من الوجوه التي حرمتنا هي الدنيا،

سنمسكُ الأيدي التي وقف بيننا وبينها الناس،

ستعيشُ الحُب الذي لم تتسع له الأرض،

سنعانقُ كل الذين فارقناهم دون وداع،

النار التي في الصدر ستبرد،

والمرض الذي يقضُّ المضاجع سيزول،

الجنّة عوض الله من كل حرمان، وكفى بها عوضاً!

31

في كتابِ «غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح» للمقدسي،

أنَّ رجلاً أرادَ أن يُهديَ الحجاج بن يوسف الثقفي

تيناً قبل أوانه ليأخذ منه جائزة،

فلمَّا صارَ ببابِ قصره، أقبلَ الشرطيُّ ومعه طائفة من اللصوصِ وقطاعِ الطُرق،

وقد هربَ منهم واحد، فأخذَ الشرطيُّ صاحبَ التينِ عوضاً عنه!

ولمَّا عرضهم على الحجاج، أمرَ بضربِ أعناقهم!

فصاحَ صاحبُ التينِ قائلاً: لستُ منهم!

فقالَ له: ما شأنك؟

فقصَّ عليه القصة.

فقالَ الحجاج: لا حول ولا قوة إلا بالله، كادَ الملعونُ أن يهلكَ ظلماً!

ثم قال للرجل: ما تُريدُ من الجائزة؟

فقالَ له: أيها الأمير، أُريدُ فأساً!

فقالَ له الحجاج: وما تصنعُ بها؟

فقال: أقطعُ شجرةَ التينِ التي عرَّفتني بك!

فضحكَ الحجاج، ثم أمرَ له بمال!

كُلّنا، واللهِ، نُريدُ فأساً نقطعُ بها تلكَ الشجرة التي كانت سبباً في معرفتنا بأحدهم!

كُلّنا نتحسسُ جرحاً غائراً تسببَ به من ائتمناه فخانَ الأمانة.

غدَرَ ورحلَ، وما زالَ الجرحُ طرياً غضّاً نلمسُه بأصابعِ الوجعِ والخيبة!

كُلّنا نذكرُ كلمةً جارحةً كانت أمضى من السكين،

اخترقت اللحم حتى بلغت العظم،

أو لعلها استقرّت في سويداءِ القلب،

مضى الليل والنهار، وهي ما زالت ماكثة تَخِزُنا عميقاً!

كُلّنا أوتينا يوماً من مأمننا،

خلعنا أثوابَ الحذرِ ذات ثقة، فلمّا انكشفنا جاءتنا الضربة، ومسّنا الخذلان،

حتى بدت لنا سوأتنا التي لم نستطع أن نُداريها حتى اليوم،

ولو خصفنا لها أشجار الأرض كلها!

ولكن لا بأس، القُساةُ جعلونا أكثر قوة،

حتى إذا جاءَ غيرهم لم نترنّح لأولِ ضربة، ولم نتفاجأ لأولِ خذلان!

الجارحون كاللقاحات، مرضٌ مخففٌ يحقنوننا به لنكتسب مناعة،

فإذا ما جاءَ المرضُ كُنا على أهبةِ المواجهة!

أيها الغادِرون لا بارك الله مقامكم حيثُ كُنتم، ولكنّنا اليومَ أقوى!

قالت العربُ قديماً: آخرُ العِلاج الكَيّ!

هكذا هي الحياة،

للحفاظ على ما تبقى منك يجب أن يكتوي بعضك!

أعرفُ أنَّ الكيّ في القلب أليمٌ جداً،

ولكنه للأسف، أحياناً يكون هو السبيل الوحيد!

لا بأس ببعض الوجع،

في سبيل خطوة تصحح مسار حياتك!

الوجع الآنيّ أقلّ كلفة من الضّياع الدائم،

من السّير إلى غير وُجهة،

ومن الاستمرار على غير أساس ثابت،

الواقفُ على رمالٍ متحركةٍ واقفٌ ولكنه غير مطمئن،

في سبيل الطمأنينة كُن جريئاً،

العضو الملتهب لا بُدَّ له من البتر!

33

يروي الأوروبيون في حكاياتهم الشعبيّة،

أنّ حَمَلاً غدا ذات صباحٍ إلى النهرِ ليشرب،

وكانَ هناك ذئب يبحثُ عما يأكله، ووقفَ يشربُ من أعلى النهر، والحملُ تحته،

فلمّا رآه قالَ له: يا لِقِلّةِ أدبك، تُعكّرُ الماءَ عليّ!

فقالَ له الحمل: إنّ الماء يجري من أعلى إلى أسفل، وأنتَ فوقي تشربُ قبلي، فكيفَ أُعكّرُ الماءَ عليك؟

فقالَ له الذئبُ: ألستَ الحمل الذي تكلّمَ عني بسوءٍ في شهرِ تموز المنصرم؟

فقالَ له الحمل: لم أكُنْ يومها قد وُلِدْتُ بعد، ألا ترى صِغر سِنّي؟

فقالَ له الذئب: إن لم تكُنْ أنتَ، فأخوك هو الذي فعل!

قالَ له الحمل: ليسَ لي إخوة يا سيدي!

فقالَ له الذئب: لا بُدّ أنه أحد أفراد عائلتك الكريهة، أنتم دوماً تتحدثون عني بسوء!

وما كادَ الحملُ يفتحُ فَمَهُ يَرُدُّ على التهمةِ الجديدة، حتى انقضَّ عليه الذئبُ وافترسه!

الذي يريدُ أن يُشعلَ حرباً وخصاماً لن تُعجزه الذريعة،

فإن لم يجد واحدةً يستغلها اختلقَ واحدة!

على أنّ التاريخ يُخبرُنا أنّ الأيام لم تكن تبخلُ بالذرائعِ على الذين ينتظرونها!

في ستينياتِ القرنِ الماضي كانت العلاقات السياسية بين السلفادور وهندوراس

قد بلغت أوج تأزمها، كانت الحربُ تنتظرُ شرارةً لتشتعل،

وكانت الشرارةُ مباراة كرة قدمٍ حاسمةٍ بين مُنتَخَبَي الدولتين

للتأهلِ لتصفياتِ كأسِ العالمِ عام 1970،

انتهت بفوزِ السلفادور، فحشدت الدولتان جيشيهما على الحدودِ وبدأت الحرب!

وفي أوائلِ القرنِ التاسعِ عشر تعرَّضَ محلُ بيعِ فطائرٍ

يملكه رجلٌ فرنسيٌ في المكسيكِ إلى النهبِ والتخريب،

وطالبَ صاحبُ المحلِ بتعويضٍ ولكن الحكومة المكسيكيةَ تجاهلت طلبه.

وبعد عشرِ سنواتٍ من هذه الحادثةِ كانَ «لويس فيليب» ملك فرنسا

مستاءً من عدمِ دفعِ المكسيك الديون التي عليها لفرنسا،

وكانَ يحتاجُ إلى ذريعةٍ ليُحارب،

فطلبَ من الحكومةِ المكسيكيةِ أن تدفعَ تعويضاً

لصاحبِ محلِ الفطائر،

وعندما قُوبِلَ طلبه بالرفض، شَنّ حرباً على المكسيكِ استمرّت خمسة أشهر!

الحالُ في السياسةِ كما هو الحالُ في حياةِ الناس،

من أرادَ أن يخاصمك فسيجدُ ألف سبب، وإن لم يجد اخترع واحداً،

ومن أرادَ أن يبقى معك، تجاهلَ ألف سببٍ لمفارقتك!

ليس كل الجهاد سَيفٌ وتِرسْ وبندقية،

هناك جهاد اسمه جهاد الكرامة،

أن تُصارع كي لا يُنتقص منكَ شيء!

أنْ لا تكون خياراً ثانياً لأحد،

ولا جليساً على دكة البدلاء،

أنْ تكون أولاً أو لا تكون!

أنْ لا تُقحمَ نفسك في حياة من لا يوسع لكَ،

أنْ لا تحشر نفسك عنوةً في أيامه،

غادِرْ كل مكان لا يعطيك قيمتكَ،

والشَّخصَ الذي يريدك للاستزادة فقط لا يلزمُك،

الغيابُ أفضل من الحُضور الباهت!

يروي الأديبُ القصصي الروسي «إيفان كريلوف» في كتابه الماتعِ «خُرافات روسية»،

أنّ رجلاً كان يرغبُ في إمساكِ ظلّه، فيخطو نحوه خطوة أو خطوتين،

فيبتعدُ الظلُ بمقدارِ ما يخطو الرجلُ نحوه!

وأخيراً قررَ أن يكونَ أسرعَ من ظله، فبدأ يركضُ مُحَاوِلاً أن يُمسكه،

ولكنه كلّما أسرع، أسرعَ معه الظلُ كذلك، حتى أنهكه التعبُ!

ثم قررَ أن يكفَّ عن المحاولة، فاستدارَ وقفلَ عائداً،

ولكنه وجدَ ظله يتبعه، فاعتقدَ أنه يريدُ الانتقام منه،

وأن المُطارِد صارَ مُطَارَداً الآن، فأخذَ يركضُ حتى وقعَ مغشياً عليه!

فيا أيُّها السادة، كثيراً ما ألاحظُ أن المال يُعاملنا بطريقةٍ مماثلة!

يُحاولُ رجلٌ بكلّ قوته أن يجمعَ ثروة، فلا يجد غير أنه قد أضاعَ وقته وطاقته.

بينما يحاولُ آخر، حسبما تدلُّ عليه المظاهر كلها

أن يهربَ بعيداً عن أنظارِ المال،

ولكن كلا... فالمال نفسه يجدُ لذَّةً في مطاردته!

في الحقيقةِ هناك أشياء كثيرة في هذه الحياة لا تأتي إلا بتركها!

كثيراً ما نبذلُ الحُب لأشخاص، نهتمُ، ونُراسلُ، ونُهدي فلا نجد صدىً،

ثم إذا ما رحلنا، جاؤوا يبحثون عنا أولئك الذين كُنا أمامَ أنظارِهم طوال الوقت!

شيءٌ ما لفتني في كثيرٍ من علاقاتِ الزواجِ التي انتهت بالطلاق،

وهو أنَّ الزوج أو الزوجة استفاقوا على سماتٍ ومميزاتٍ في بعضهم البعض

لم يكونوا يُدركونها أثناءَ زواجهما!

شيءٌ ما فينا نحن البشر سيئ جداً،

وهو أننا لا نُدرك قيمةَ الأشياءِ إلا بعدَ أن نَفقدَها!

والشيءُ بالشيءِ يُذكرُ،

وعلى سبيلِ الأشياء التي إذا هربَ منها الإنسانُ لحقته هي الشُّهرة،

الشهرةُ الحقيقية أعني،

تلك التي يكونُ العبدُ فيها معروفاً في السماءِ أكثر ممَّا هو معروفٌ في الأرض!

كانَ الإمامُ أحمد يدعو أن يموتَ دون أن يعرفه من

المُسلمين أحدا!

فماتَ ولا يجهله من المُسلمين أحدا!

حين كتبَ الإمامُ النووي رياضَ الصالحينِ لم يكُنْ يبحثُ عن شُهرة،

لهذا بقيَ الكتاب!

وعندما أرادَ الإمامُ مالك أن يكتبَ المُوَطَّأ قِيل له:

ما الحاجة إليه وكُتب الحديثِ كثيرة؟!

فقال: ما كانَ للهِ يبقى!

وبقيَ المُوَطَّأ لأنه منذُ البدايةِ كان للهِ!

36

يقول ابن الجوزي:

رأيتُ رجلاً يبيعُ الثلج، فكان يُنادي عليه ويقول:

ارحموا من يذوب رأس ماله!

بعض الناس مُصابهم في قلّة أرزاقهم،

ذاك أن الدُنيا دار امتحانٍ وهذا امتحانهم،

وهم بدل أن يمدوا أيديهم للناس اتخذوا تجارةً بسيطة،

اشتروا منهم بنيَّة الصَّدقة،

لا تُكاسروهم في السّعر، ولا تتشاطروا عليهم،

واشتروا وإن كان الشيء لا يلزمكم،

ثم تصدقوا به على من يلزمه،

وهذه صدقة على اثنين!

عصفوران بحجرٍ واحد، وجبر الخواطر عبادة!

روى «ابنُ الجوزيّ» في كتابه «عيون الحكايات»،

أنّ عابداً من بني إسرائيل عبدَ اللهَ في صومعته ستين سنة،

وأنه أتيَ في منامه فقيل له: إنّ فلاناً الإسكافي خير منك!

فلما استيقظ، قال: رؤيا والله!

ولكنه التزمَ صومعته، فلم ينزلْ ليرى الإسكافيّ،

فلم يزل يرى ذلك في منامه مراراً،

ويُقال له: إسأل الإسكافيّ ممَّ صُفرة وجهه؟!

فنزلَ من صومعته، فأتى الإسكافيّ،

فلما رآه الإسكافيُّ قام من عمله، وجعلَ يتمسَّحُ به،

وقال له: ما أنزلكَ من صومعتكَ؟

قال: أنت، فأخبرني مِمَّ صُفرة وجهك؟!

فقال له: إني رجلٌ لا أرى أحداً من النّاس،

إلا ظننتُ أنه في الجنّة، وأنا في النار!

وقال ابن الجوزيّ معلّقاً على القصة:

إنما فُضِّلَ الإسكافيُّ على الرَّاهب بازدرائه نفسَه!

وقد أوردتُ هذه القصة لأني أعرفُ أنه،

ما منا من أحدٍ إلا وكُسِرَ خاطره يوماً،

بكلمةٍ جارحه، أو تصرف فظّ من أناس،

فهموا الالتزام خطأ، فبغّضوا الله إلى عباده!

وبدل أن يُعينوا الناس على الشيطان، أعانوه عليهم،

كم من شابٍ تاركٍ للصلاة زاد نفوراً بكلمةٍ جارحة،

وكم من سافرةٍ كرهت الحجاب بفظاظةِ مُلتزمة،

وكم من أناس نفروا من أهل الدِّين لشخصٍ سيءٍ قابلوه،

ولا أقبح من هؤلاء الذين ينظرون إلى الناس كأنهم أرباب!

ولكن دعونا نُفرّق بين ما يريده الإسلام منا حين نلتزم،

وبين التصرفات الخاطئة لبعص الملتزمين،

ودعونا لا نأخذ الجميع بالجملة،

فإن كان من داعية فظ، فإنّ مئات الدعاة رحماء،

وإن كان هناك ملتزمة ينقصها اللين والرفق،

فهناك المئات لهُنّ قلوب تفيض بالرّحمة،

لا تدع أحداً يقفُ بينك وبين الله،

ولا تبتعِد عنه بسبب شخصٍ سيء الخُلق،

إن أخطأ طبيب فنحن لا نتوقف عن التداوي،

وإن تبيّن أن هناك مطعم يفتقرُ إلى النظافة، فنحن لا نهجر المطاعم كلها،

الميكانيكي الذي غشّنا نتركه، ونقصدُ غيره،

نحن في الحياة لا نأخذ الجميع بخطأ الواحد،

فلماذا علينا في الدّين أن نأخذ الجميعَ بخطأ الواحد؟!

إذا أردتَ أن ترى كيف هو الالتزام فخُذه من منبعه،

كان الصحابة أكثر الناس تواضعاً، وأحسنهم خُلقاً، وقد بُشروا بالجنة!

كان أبو بكر يحلبُ أغنام مساكين الحي،

فلما بويع بالخلافة، قالت جارية من الحيّ:

الآن لا يحلبُ لنا!

فقال: بلى، لأحلبنها لكم، وأسألُ الله أنْ لا يُغيرني!

ويقول عروة بن الزبير:

رأيتُ عمر بن الخطاب وهو خليفة يحملُ على عاتقه قربة ماء،

فقلتُ: يا أمير المؤمنين، لا يليقُ بكَ هذا،

فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين،

دخلتْ نفسي نخوة، فأردتُ أن أكسرها!

وقال الحسنُ بن علي بن أبي طالب:

رأيتُ عثمان بن عفّان يقيل في المسجد، وهو يومئذ

خليفة،

ويقومُ وأثرُ الحصى على جنبه!

واشترى عليٌّ بن أبي طالب لحماً بدرهم،

فحمله على كتفه، ومشى،

فقيل له: نحملُ عنكَ يا أمير المؤمنين،

فقال: لا، صاحبُ الشيءِ يحمله!

ومرَّ عبدُ اللهِ بن سلام في السُوق وعليه حزمة حطب،

فقيل له: أليسَ الله أعفاكَ من هذا،

فقال: بلى، ولكن أردتُ أن أدفعَ به الكِبر!

وانطفأ سِراج عمر بن عبد العزيز وهو يومئذٍ الخليفة،

فقامَ، وأصلحه بنفسه،

فقالوا له: كنا نكفيكَ هذا يا أمير المؤمنين،

فقال: ما ضرَّني، قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعتُ وأنا عمر بن عبد العزيز!

وقال يحيى بن معين: ما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل،

صحبناه خمسين سنةً، ما افتخرَ علينا بشيء!

الإيمان لا يزيدُ صاحبه إلا تواضعاً، ورحمة،

فإن لم يفعلْ فهو إيمانٌ مغشوشٌ!

ومهما بلغتَ من الالتزام، فاعلمْ أنك ما بلغتَ إلا برحمةِ

الله،

وأنه ليس بينك وبين العُصاة إلا أنه أرخى ستره عليكَ،

أنظر إلى العاصي على أنه مبتلى يحتاجُ الرّحمة لا التأنيب،

وإلى السافرة على أنها ضعفت لا على أُنها كَفرتْ!

وإلى هاجِرِ المسجدِ على أنه أخذته الدنيا، لا على أنه هجرَ الإسلام،

إياك أن ترى نفسكَ خيراً من الناس بعباداتٍ يسَّرها اللهُ عليكَ،

فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة،

ولعلَّ كِبْراً في قلبكَ يوردكَ المهالكَ،

فتدور الأيام، فإذا أنتَ مكان العاصي، وهو مكانك،

وكلنا رأينا ملتزمين انتكسوا بعد استقامة،

ورأينا عصاةً صاروا إلى الله أقرب ممن سبقوهم!

عاشت فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر،

بعد وفاة النبيِّ ﷺ،

وعلَّقَ الإمام الذَّهبي على هذا قائلاً:

مكثت فاطمة رضي الله عنها بعد وفاة النبي ﷺ،

ستة أشهر وهي تذوب!

تأملوها بعمق: تذوب!

وقد قالت العربُ: فِراق الأحبة غربة،

الفاقد يشعرُ بشيءٍ قد بُترَ منه،

ولكنه بَترٌ في الروح!

فالبعض لا يملأ مكانهم أحد،

كان ليعقوب عليه السلام أحد عشر ولداً،

ولكن لم يملأ أحد منهم مكان يوسف عليه السلام،

وكان للنبي ﷺ إحدى عشرة زوجة،

ولكنه ظل حتى آخر عمره يقول: واللهِ ما أبدلني الله خيراً من خديجة،

فالله، الله في الفاقدين!

في كتابه «حِرفة السلاطين» يُحدثنا الكاتب الأمريكي «رالف سيو»

عن أستاذِ مصارعةٍ كان يُتقنُ 360 خدعة للإمساكِ بالخصم،

وقد أحبَّ هذا الأستاذ أحد تلاميذه، فعلّمه 359 خدعة،

وتركَ لنفسه واحدةً لم يعلّمهُ إياها أبداً.

مضت الأيام، وصارَ هذا التلميذ من أقوى المُصارعين،

ولم يكُنْ أحد يجرؤُ على مُنازلته!

فصارَ يتباهى بقوته، إلى درجةِ أنه أخبرَ السلطان،

أنه يستطيعُ أن يتغلبَ على أستاذه أيضاً!

فغضبَ السلطانُ من قلةِ أدبِ التلميذِ مع أستاذه،

وقرَّرَ على الفورِ أن يُجريَ نِزالاً بين التلميذِ وأستاذه.

وفي اليومِ الموعود، وقفَ الخصمان في مُواجهةٍ ينتظرُها الجميع،

وعندما قُرِعَ الجرسُ ببدءِ الجولةِ الأولى،

اندفعَ التلميذُ نحو أستاذه بسرعةٍ يملأه الحماس، والرغبة بنصرٍ سريع،

ولكن الأستاذ أمسكه بطريقةٍ أدهشت الجميع وطرحه

أرضاً.

وعندما سألَ السلطانُ الأستاذَ كيف استطاعَ أن يتغلبَ على تلميذه الشاب،

قالَ له الأستاذ: لقد احتفظتُ بهذه الحركة لمثلِ هذه الظروف!

حتى وإن لم يكُن الذي علّمكَ قد احتفظَ لنفسه بضربة،

فليس من الأدبِ أن يتطاولَ المرءُ على من كانَ له فضلٌ عليه في يومٍ من الأيام،

وإن أصبحَ أفضل منه!

لا تهزأ برأي الرجل الذي علمكَ كيف تنطقُ كلمةَ بابا،

حتى ولو كنتَ تحملُ شهادةً عُليا وهو لا يعرف كيف يفكُّ الحرف،

لأن هذا من قلةِ الأدب، فضلاً عن أنه من العقوق،

وهو مؤشر على قلةِ الفهم، والفهمُ شيءٌ والشهادةُ شيءٌ آخر!

ولا تخجل بالمرأة التي حملتك في بطنها وهناً على وهن،

وأرضعتكَ صغيراً، وربّتك صغيراً حتى اشتدَّ عودك،

لا تخجل بها وإن كانت بسيطة وأنت لك مُلك سليمان ومال قارون!

فالذي يتنكّرُ لأصله لا أصل له!

لا أحد أوفى من الله سبحانه، وهو يحبُّ الأوفياء،

ومن الوفاء أن يتأدبَ المرءُ مع كلِّ من ساعده،

على أن يمشيَ في طريقِ نجاحه ولو خُطوة واحدة،

هذا ناهيك بأنه عليه أن يتأدبَ مع الناسِ أجمعين!

لا تتحسّر على الماضي،

الماضي لنتعلم منه الدرس، لا لنعيش فيه،

لا تسمح للذي ذهبَ عنكَ أن يذهبَ بكَ،

ولا للذي غدركَ أن يُغادرَ بكَ،

كُنْ مديناً لكل صفعةٍ لأنها أنضجتكَ،

ولكل خداعٍ لأنه علّمكَ الحذر،

ولكل تعثرٍ لأنه علمكَ كيف تقفُ مجدداً،

طيُّ صفحة الماضي لا يعني أنك نسيته،

إنه يعني أنه لن يتحكم بكَ بعد اليوم،

فاطوِ الصفحة!

في كتابه «قافلة الأحلام» يروي «إدريس شاه»

أن ملك بلاد التترِ قد خرجَ يوماً برفقةِ حاشيته،

فمرُّوا على رجلٍ حكيمٍ كان قد اعتزلَ الناس في صَوْمَعَةٍ له.

فلمَّا رآهم قالَ لهم: من يُعطيني منكم مئة دينار فسأقدمُ له نصيحة؟

فقالَ له الملك: ما هذه النصيحة التي تُساوي مئة دينار أيها الحكيم؟

فقالَ له: ادفَعْ أولاً وستعرفُ ثانياً.

ناوله الملك النقود، وهو يتوقَّعُ أن يسمعَ نصيحةً خارقةً،

ولكنَّ الحكيم قال له: لا تبدأ شيئاً قبل أن تعرفَ كيف ستُنهيه!

ضحكت الحاشية طويلاً، وظنَّت أن الحكيم قد قامَ بخداعِ الملك.

ولكن الملك قالَ لهم: لا تضحكوا، هذه نصيحةٌ قيِّمةٌ فعلاً،

ولأهميتها سأكتبها بماءِ الذهبِ على الجدرانِ في قصري!

ولم يمضِ وقت طويل حتى رغبَ أحدُ المتآمرين

باغتيالِ الملك،

وقدَّمَ رشوةً إلى حلاقه،

وأعطاه خنجراًمسموماً وطلبَ منه أن يغرسَهُ في صدرِ الملكِ عندما يحلقُ له شعره.

وفي اليومِ الموعود، جلسَ الملك بين يدي حلّاقه،

وعندما همَّ بإخراجِ الخنجرِ المسمومِ رأى الجملة الشهيرة على الجدران.

فقالَ في نفسه: إذا فشلتُ فسيقتلني الملك، ويقتلُ كل عائلتي،

وإذا نجحتُ فإن الملك الجديد سيقتلني أيضاً ليُخفي فعلته!

وعندما لاحظَ الملك خوفَ حلاقه وحيرته، سأله عما به،

فما كانَ منه إلا أن أخبره بكلِّ تفاصيلِ المؤامرة!

فألقى الملكُ القبضَ على المُتآمر،

وأرسلَ في طلبِ كل الذين كانوا معه يوم اشترى النصيحة،

وقال لهم: أما زلتم تعتقدون أنه قد تمَّ خداعي؟

أنا لم أشترِ نصيحةً فقط، لقد اشتريتُ حياتي ومُلكي!

قبل أن تبدأ بأمرٍ فكّرْ كيف تُنهيه!

لا تقل لأحدٍ أحبك ما لم تكن تعنيها من قلبك، لأنَّ هذا جريمة،

فلا شيء أقبح من أن توقدَ شمعةً في صدرِ أحدهم ثم تُطفئها!

لا تقُل نعم وأنت تريدُ أن تقول لا،

ستدفعُ بقية عمركَ ندماً لأنك وافقت حيث كان يجبُ أن ترفض!

المحطةُ التي لا تريدُ أن تصلَ إليها لا تمشِ في الطريقِ المؤديةِ إليها من الأساس!

والأشخاص الذين لا تريدُ أن تكونَ مثلهم لا تُصاحبهم منذ البداية!

الاختصاص الجامعي الذي لا تُريده لا تتورّط به منذ البداية!

ليس لنا إلا عُمر واحد، فلنعرف منذ البداية ما نريد!

في كتاب «الآداب الشرعيّة» لابن مفلح،

أنَّ الإمام أحمد بن حنبل قال:

ما سمعتُ كلمةً كانت أقوى لقلبي،

وأقرّ لعيني في المِحنة،

من كلمةٍ سمعتها من فقيرٍ أعمى،

قال لي: يا أحمد، إن تهلك في الحق متّ شهيداً،

وإن عشتَ، عشتَ حميداً!

لو كان الإنسان جبلاً من الصّبر والإيمان،

فإنه يحتاج إلى من يربت على قلبه،

الكلمة الحُلوة تُصبِّرُ، وتثبِّتُ، وتُرحم،

فلا تبخلوا!

43

روى «ابنُ الجوزيِّ» في كتابه «عيون الحكايات»،

كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك،

فالدِّيك يوقظهم للصلاة،

والحمارُ ينقلون عليه الماء، ويحملُ متاعهم،

والكلبُ يحرسُهم،

فجاء الثعلبُ فأكل الدِّيك، فحزنوا لذلك،

وكان الرّجلُ صالحاً، فقال: عسى أن يكون خيراً!

ثم مكثوا ما شاء الله، فجاء ذئبٌ وافترسَ الحمار،

فحزنوا لموت الحمار حزناً شديداً،

فقال الرجل الصالح: عسى أن يكون خيراً!

ثم مكثوا ما شاء الله، فماتَ الكلبُ،

فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً!

فأصبحوا ذات يوم، فإذا اللصوصُ قد قتلوا ونهبُوا كل من حولهم،

عرفوا أماكنهم في الليل بما كان عندهم من الصَّوتِ والجلبة،

أما أولئك فنجوا بموتِ ديكهم، وحمارِهم، وكلبِهم،

وكان ما قال الرَّجلُ الصالحُ: عسى أن يكون خيراً!

مشكلتنا نحن البشر أنّ نظرَنا قاصِرٌ ومحدود،

لا نرى من المشهدِ إلا جزءاً يسيراً منه،

أما الله سبحانه فيرى الأمورَ كلّها، ويُدبرها بحكمةٍ،

حكمة تغيبُ عنا، حين يقعُ ما نكره،

ثم تدور الأيامُ لنكتشف أنّ خيرة الله لنا خير من خيرتنا لأنفسِنا،

ما من أحدٍ منا إلا وأرادَ شيئاً بشدّة،

واعتقدَ أنه إذا لم يأخذه فإنّ حياته ستصبحُ جحيماً،

وبعد زمن يكتشفُ أنّ الخير كان في أن نُحرم منه!

نريدُ شخصاً نرى أنّ سعادتنا معه كأنه لم يُخلق غيره،

ثم يعطينا الله خيراً منه،

فنحمد الله على الحرمان القديم، ونشكره على العطاء الجديد،

ما منا من أحدٍ إلا وفاتته وظيفة، كان يحسبُ أنها باب الرزق الوحيد،

نحن في لحظة ضعفِ بشري، ننظرُ إلى باب الرزق الذي أقفل،

ولا ننظر إلى الرازق الذي بيده كل الأبواب،

ثم يدور الزمان فنخجل من كرم الله!

كم من علاقةِ زواجٍ انتهت بالطلاق،

فعوَّضَ اللهُ كلا منهما خيراً من صاحبه،

وكم من زوجٍ أو زوجةٍ ماتَ شريكُ عمره،

فأرسلَ اللهُ تعالى إليه بعد ذلك من أنساه حزنه كله،

لما ماتَ أبو سلمة، حزنت أمُّ سلمة لموتِه حزناً شديداً،

فقال لها النبيُّ ﷺ:

قولي اللهمَّ أجرِني في مُصيبتي، واخلفني خيراً منها،

فدعت كما أمرَها، ولكنَّها في أعماقها كانت تقول:

وهل في الناس خيرٌ من أبي سلمة؟!

فما لبثت أن تزوجت النبيَّ ﷺ،

فلم يكن خيراً من أبي سلمة فقط، بل خيراً من الناس أجمعين!

عوضُ اللهِ مذهل، وجبرُه يُنزلُ دموع الفرح،

أخذُه عطاء إذا ما فهمنا رحمته،

ومنعُه مِنحة إذا استقام لنا الفهم،

وسبحان من يبتلي بالصَّغيرة، ليحمي من الكبيرة!

تقول الحكاية:

كان لأحدِ الملوك وزيرٌ حكيمٌ يصحبُه معه دائماً،

وكلما حصلَ للملكِ مكروه يُعكِّرُ صفوه،

قال له الوزير الحكيم: لعلَّه خير،

وفي إحدى المرات قُطع إصبع الملك، فقال له الوزير: لعله خيرا!

فاستشاط الملك غضباً، وقال له: وأيُّ خيرٍ في هذا؟!

وأمرَ بحبسه مباشرةً،

ولكن الوزير لم يزد على أن قال: لعله خيرا

وخرج الملك في رحلة صيد، وابتعدَ عن حُراسه يلحقُ فريسته،

فوقع في قبضة قومٍ يعبدون الأصنام،

فقرروا أن يقدموه قرباناً للصنم الذي يعبدونه،

ولكن زعيمهم انتبه أن إصبعه مقطوع،

ولا يليق أن يكون قرباناً لصنمهم، فتركوه،

عادَ الملك فرحاً بنجاته من موت محقق،

وتذكر وزيره على الفور، وعاد إلى القصرِ وأطلقَ سراحه،

وأخذ يُطيِّبُ خاطره، ويعتذر منه،

ثم قال له: حقاً لقد كان الخيرُ في أن يُقطع إصبعي،

فأيُّ خيرٍ كان في أن تُسجن؟

فقال له: يا جلالة الملك، كنتُ سأكون معكَ كالعادة، وربما قدموني قرباناً للصّنم!

من لطائف ما قرأتُ في التفسير،

قول الإمام القشيري،

عن قول سيدنا سليمان عن الهدهد:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

قال: العذاب الشديد أن يُفرِّقَ بينه وبين من يُحب،

فإنَّ الفرقة عن الحبيب تجعَل المرءَ كأنما،

يتنفَّسُ من خرم إبرة!

وفي نفس الباب قالت العرب:

فقد الأحبة غُربة!

يروي «ليوناردو دافنشي» في كتابه «الأعمال الأدبية»، القصة التالية:

تسلّقَ رجلٌ شجرةَ تين، وكان يحني أغصانها نحوه،

ويقطفُ ثمارها الناضجة، ويُلقيها في فمه.

عندما رأث شجرةُ الكستناءِ هذا المشهد، قالث للتينةِ باستعلاء:

أيتها التينةُ المسكينة، إن حمايةَ الطبيعةِ لكِ أقلُّ بكثيرٍ من حمايتها لي.

انظري كيف تضعُ ثماري داخل لِباسٍ مُحكَمٍ وثيق،

فهي تُغلفها أولاً بأغلفةٍ طرية، فوقها قشرة قاسية.

ولم تكتفِ الطبيعةُ بكلِّ هذه العناية، فأعطتنا هذه النُتوءات الحادة المُستدِقَّة المُتلاصقة،

بحيث لا تستطيع يدُ الإنسان أن تُؤذينا!

ضحكث شجرةُ التينِ من قولِ شجرةِ الكستناءِ طويلاً، وقالث لها:

إنكِ تعرفين جيداً أن الإنسان عنده

من البراعةِ والإبداعِ ما يُمكّنه من قطفِ ثمارك،

إنه يفعلُ ذلك بالعصي والحجارة!

وعندما تتساقطُ ثمارك يدوسُها بقدميه،

أو يكسرُها بالحجارةِ ويأكلُ ما فيها!

يا عزيزتي كلانا يُؤكل ثمره، ولكن كل واحدةٍ منا بطريقة،

أنا بطريقةٍ ناعمة، وأنتِ بطريقةٍ خشنة!

يُعجبني الإنسان اللَّيِّن، لا تأسرني الشهادات، ولا تفتِنُي الألقاب،

ولا يعنيني كم تملك، كل هذه الأشياء لكَ،

أما لينك وتواضعك فهذا ما يُمسك بزمامِ قلبي!

يُعجبني ذلكَ الذي يختارُ كلامه بدقةٍ كي لا يجرح أحداً،

فتجده إذا نطقَ كأنما يربتُ على كتفٍ،

وإذا قالَ كأنما يجبرُ خاطراً، وإذا تحدَّثَ فكأنما يخيطُ جرحاً!

يُعجبني ذلك الذي يلينُ للبُسطاء،

يبتسمُ في وجه عاملِ المحطة، ويرقُّ لحمَّالِ الأكياسِ في الاستهلاكيات،

ويتغاضى عن السّعرِ قليلاً لبائعٍ متجوِّلٍ يحسبُ استغفاله هذا صدقة خفيَّة،

ويرى انخداعه القليل صفقةً رابحة!

يُعجبني ذلك الذي إذا دخلَ إلى بيته دخلت معه السعادة والفرحة والطمأنينة،

يُهدِّئُ من روعِ زوجةٍ، ويُطَمئِنُ ولداً، ويُعانقُ بنتاً،

كالمطرِ إذا حلَّ استبشرَ به الناس!

يُعجبني ذلك الذي يألفُ ويُؤلفُ،

يحبُّ الخير للناس، ويرى نجاحهم لا يُنقص من نجاحه،

وما لهم ليس مأخوذاً منه، ويدعو للجميعِ بالبركة.

يُعجبني ذلك الذي يرى الدنيا دار عبور،

وأن خيرَ ما يأخذه معه المرء من زادٍ هو العمل الصالح،

وخيرَ ما يتركه خلفه حُسن الأثر!

فاللهم اجعلنا ليّنين، وأحِطنا باللينين!

أكثر الأشياءِ مرارةً في هذا العالم،

ليس الحنظل كما يقول بعضهم،

وليس العلقم كما يقول البعض الآخر،

أكثر الأشياء مرارة هو الخذلان!

أن تُصفع باليد التي كنت تُقبلها،

وأن تُركل بالقدم التي كنت تخشى أن تمسها شوكة،

الفتيلة التي ضمَّتها الشمعة طويلاً،

هي التي أحرقتها!

أوجع احتراقٍ هو الذي يأتيك ممن كنت تضمُّه!

يروي الأديبُ الصيني «يو هسيو صن» في كتابه الماتع «خرافات صينية قديمة»

قصةً يقولُ فيها:

كان «تئين جاو» يخدمُ الدوق «آي في لُو» بإخلاص،

ولكنه ظلَّ منزعجاً من ضآلةِ منزلته لدى الدوق.

فقالَ يوماً للدوق: سأرحلُ بعيداً مثل إوزةِ الثلج!

فسأله الدوق: ماذا تعني!

فقال له: هل ترى الدَيك يا سيدي الدوق؟

إن العُرفَ الذي على رأسِه رمزٌ للأناقةِ والجمال،

ومخالبه قوية تُوحي بالقوة، وجُرأته في مقاتلةِ أي عدو تدلُّ على الشجاعة،

وغريزته في دعوةِ الآخرين إلى الطعامِ كُلَّما حصلَ عليه تُظهرُ نزعته لعملِ الخير.

وأخيراً وليس آخراً فإنَّ دقته في إخبارنا بالوقت تُعطينا مثالاً عن الصِّدق!

غير أنه برغمِ هذه الفضائل الخمس، فإنَّ الديوك تُذبحُ يومياً لتملأ الأطباق على مائدتك!

هلَّا سألتني لماذا؟

فقال له الدوق: لماذا؟

فقال له: لأن الديك في مُتناولِ أيدينا.

ومن جهةٍ أخرى فإن الإوزة الثلجية تقطعُ في رحلةِ طيرانٍ واحدةٍ ثلاثمئة كيلومتر،

وعندما تستريحُ في حديقتك، فإنها تأكلُ أسماكك، وسلاحفك،

وتنقرُ الفاكهة من أشجارك،

وبالرغم من أنها لا تملك أية ميزة من ميزاتِ الديكِ فإنك تُقدّرُها بسببِ ندرتها!

لهذا قررتُ يا سيدي الدوق أن أرحلَ كإوزةٍ تلقى التقدير في مكان آخر!

قالت العربُ قديماً: أزهدُ الناس بالمرءِ أهله وذووه!

وفي ذاتِ المضمارِ قالوا: لا كرامة لنبيٍّ في قومه!

ذكّرتني هذه القصة الصينية الجميلة بقصةِ الإمامِ أبي حنيفة،

حيث كانت له أمٌّ هو بها بار، وهي عابدةٌ زاهدةٌ

غير أنها لم تكُن تأخذ الفتوى في أمورِها منه!

وفي ذاتِ يومٍ حارتْ في أمرٍ من أمور دينها، فأفتاها أبو حنيفة، فلم تأخذْ منه!

وأصرّتْ أن تذهبَ إلى الفقيه «عُمر بن ذر» لتعرض عليه الأمر!

فقال لها: في المسألةِ خلاف، وأرجحها قول أبي حنيفة!

درجَ الناس يقولون: الناسُ في الفقهِ عيالٌ على أبي حنيفة!

ورغم هذا لم تكُن أمه تطمئن لفتواه،

هكذا نحنُ الناس نزهدُ دوماً بما في أيدينا،

ذلك أن الألفة تقتلُ البريق،

وإننا ربما في قرارةِ أنفسِنا نؤمنُ أن النبوغ يجب أن يكون بعيداً!

يبدو أنها إحدى سُنن الكون أن آخر من يؤمن بقدراتِ المرء ونبوغهِ ورسالتهِ هم قومه،

ففي يوم أُحُد الذي شجّتْ قُريش فيه رأس النبيِّ ﷺ

وكسرتْ مُقدمة أسنانه،

جاءتْ امرأةٌ من الأنصار ماتَ أبوها وزوجها وابنها، تقول: ما فعلَ رسولُ الله؟

فقالوا: هو بخير

فقالت: أروني أنظُر إليه

فلما رأته قالت: كلُّ مُصيبةٍ دونك جلل يا رسول الله!

قومُهُ أسالوا دمه، وامرأةٌ من الأنصار، فقدتْ أحب الناس إليها،

تقولُ له كل شيءٍ يهونُ ما دمتَ بخيرا!

عندما قتلَ جسّاس بن مُرّة كُليب بن ربيعة،

لم يرَ الحارث بن عبّادٍ أنّ هذا يستحقُّ الثأر،

وقال قولته الشهيرة التي صارت مثلاً:

الدِّية عند الكرام الاعتذار!

وعندما قتلَ الزيرُ سالم ابنَه جُبيراً،

قال الحارث بن عباد والدم يغلي في عروقه:

لأقتلنَّ به عدد الحصى والنجوم والرمال،

وشنّ حرباً على تغلب حتى كاد أن يُفنيهم!

في جراح الآخرين تأدّب،

لا تستهنْ بجرح لم تجربه،

ولا تستصغر طعم الخذلان لأنك لم تذقه،

ثمة وجع في الأعماق لا يُحكى،

إنه يُحسّ، يُحسّ فقط!

في كتابه «خرافات» يُحدثنا فيلسوفُ الإغريق «إيسوب»

عن ضفدعتين سكنتا بركة ماءٍ، وربطتهما صداقة متينة،

وعندما حلَّ الصيفُ بشمسه الحارقة جفَّت مياهُ البركة،

فقررتا أن تبحثا عن مكانٍ آخر للعيش.

مرَّتا ببئرٍ عميقة، فيها ماء وفير،

فقالت ضفدعة لصديقتها: يا لها من بئرٍ كثيرة الماء، سنسكنُ هنا، هيا لنقفز!

وكانت الضفدعةُ الأُخرى حكيمة، فقالت لصديقتها:

لنفترض أننا قفزنا إلى البئر، حيثُ الماء وفير، والطعام كثير،

ولكن هل فكرتِ كيف سنخرجُ من هنا مرةً أخرى؟!

لا تفعل شيئاً دون النظرِ في العواقب،

البداياتُ سهلةٌ على الجميع لا تحتاج إلا الخطوة الأولى،

ولكن المهارة تكمنُ في محطةِ الوصول!

إن أول ما يتعلمه الطيارون هو الهبوط!

العاقلُ يُفكرُ في العاقبةِ والمآلِ أولاً، لأن الحياة المبنية

على التهوُّر،

وردّاتِ الأفعالِ تؤدي إلى الفشل!

المناهجُ الدراسيةُ بِكُلِّ ما فيها من كتب، ووسائل تعليمية، وأدوات تقويم ليست إلا

وسيلة!

تنظرُ الدولةُ في الإنسان،

وترى الشكلَ الذي تُريدُه أن يكونَ عليه بعد سنوات،

والقيم التي يجب أن تكونَ لديه،

والمهارات التي يجبُ أن يُتقنها، فتضع هذه المناهج بناءً على هذا التصوُّر!

مُنِعَ المسلمون من القتالِ في مكة لأن العقيدة قبل السيف،

ولأن السيف الذي لا تحكمه العقيدة ما يلبثُ أن يصيرَ أداة عدوان،

أما متى تمكنت العقيدة من المرءِ تأدّبَ السيفُ بها،

وفهمَ صاحبها الغايةَ من حملِ السيف،

لهذا حين دخلَ ربعي بن عامر على رستم قائد الفرس قالَ له:

لقد ابتعثنا الله لنُخرج العباد من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العباد،

ومن جَوْرِ الأديان إلى عدلِ الإسلام!

ربعي بن عامر لم يكُنْ إلا صنيعة هذا النبيّ العظيمِ

الذي كانَ يعرفُ مُنذ البدايةِ إلى أين يريدُ أن يصل!

قالَ مُعاوية مرةً لعمرو بن العاص: ما بلغَ من دهائكَ؟

فقالَ له عمرو: ما دخلتُ في أمرٍ إلا وعرفتُ كيف أخرجُ منه!

فقالَ له مُعاوية: أما أنا فلا أدخل في أمرٍ أريدُ الخروج منه!

في رواية «ما تُخبئه لنا النجوم»،

للكاتب الأمريكي «جون غرين» مقطع يفطر القلب،

تقول فيه «هايزل غرايس» عن موت «أغسطس»:

ثم أدركتُ أن لا أحد اتصل بي لأبكي معه،

وهذا أكثر ما أحزنني،

فالشخص الوحيد الذي أردتُ أن أحدثه عن موت «أغسطس»،

هو «أغسطس» نفسه!

وأدركتُ حينها أن الجنازات لا تُقام للأموات،

وإنما تُقام للأحياء!

ضربَ هذا المقطع عندي على وترا!

ويبدو أننا فعلاً لا نبكي موت أحبابنا،

بقدر ما نبكي بقاءنا دونهم،

إننا بهذا المعنى «نبكينا» لا «نبكيهم»!

تقولُ الأسطورة: كان هناك سوق غريب،

اسمه سوق بيع الأحوال!

كل شخصٍ لا تُعجبه حاله يقصده،

فيبيعُ حاله، ويشتري بثمنها حال شخصٍ آخر،

ولكن المفاجأة كانت،

أنه لا أحد أخذ حال شخص آخر،

إلا وعاد بعد مدة مسرعاً إلى السوق،

ليسترجع حاله التي باعها!

كلنا نملكُ الكثير، وينقصنا بالمقابل شيء ما،

ولكن للأسف نحن لا ننظر إلى ما نملك،

وإنما ننظرُ إلى ما ينقصنا!

نحن نرى ما يملكه الآخرون،

ولكننا لا نرى ما الذي حُرموا منه!

سافرتُ كثيراً، والتقيتُ بأناس أكثر،

مشاهير، وساسة، ودعاة، وأثرياء، وكُتّاب،

ما أطلعني أحد منهم على حياته الخاصة،

إلا ورأيتُ فيها حرماناً من ناحيةٍ ما،

أحد الأمراء قال لي في نهاية حديث ثقافيٍ مطوّل:

أتمنى صديقاً حقيقياً، يُصادقني لشخصي أنا، وليس لما أنا عليه!

تخيلوا بساطة هذه الأمنية!

الحرمان لا يكون في المال فقط،

كل شيءٍ ينقصنا هو حرمان،

ولكن الإنسان يعتقدُ أنه لا حرمان إلا ما ينقصه هو!

تلك التي تُسافر كثيراً وتغبطينها أنتِ،

ربما ليس لديها أولاد،

وكم كانت تتمنى أن يزول كل هذا النعيم،

بطفل صغير يقول لها: ماما!

تلك العجوز التي أغدقَ عليها أولادها،

الذين أحسنت تربيتهم وتعليمهم الأموال،

حتى كانت كل عجائز الحي يحسدونها،

كانت كل ليلةٍ تبكي ابنها الذي دهسته سيارة،

وعندما ظنَّ الجميع أنَّ جرحها اندمل،

بكت بكاءً مُراً يوم زفافِ أحد أصدقائه الذين كان يلعبُ معهم وهو صغير،

وقالت: لو كان هنا لربما كان اليوم زفافه أيضاً!

أوافقُ أنَّ الدنيا مع الفقر قاسية جداً،

ولكني أعرفُ ثرياً لا يسمح له مرضه،

إلا بتناول الخضروات المسلوقة فقط!

لا شيء يجعلُ الحرمان مستساغاً غير الرضا عن الله وقدره،

وأن تفهم الدنيا على حقيقتها،

أنها دار امتحان لا دار جزاء،

دار زراعةٍ لا دار حصاد،

وأن امتحانِ المرء يكون بالصبر على ما حُرم منه،

وأن نفهم أيضاً حقيقة وجودنا على هذا الكوكب،

بأنها فترة مؤقتة نبني بها منازلنا التي سنخلد فيها،

في الجنة بإذن الله، أو في النار والعياذ بالله!

في العام 1942 وأثناء الحرب العالمية الثانية،

أغرقت غواصة ألمانية سفينةً بريطانية،

ماتَ جميع طاقم السفينة باستثناء «بون ليم»،

الذي قضى مئةً وثلاثةً وثلاثين يوماً،

على خشبة من حطام السفينة حتى وصل على الشاطئ،

خلال هذه الأيام كان يأكل الأسماك الميتة نيئة، ويشرب دماء الطيور!

وعندما تمَّ العثور عليه وانتشرت قصته سُئل:

ما الدرس الذي تعلمته من تلك الأيام؟

فقال: إذا كان لديك طعام وماء فلا يحق لكَ أن تتذمر!

وهكذا نحن..

لكل منا خشبة طافية في المحيط، أي ظروف صعبة،

أعتقدُ أننا يجب أن نعيد حساباتنا قليلاً،

ونصحح نظرتنا إلى حياة،

تحديداً تلك الأشياء التي نملكها مهما بدت ضئيلة!

يروي «ناثان أوسوبيل» في كتابه «مجموعة قصص شعبية»، القصة التالية:

اختلفَ قطٌ وكلبٌ حول قطعة جُبن كل يرى أنه أحق بها من الآخر،

وعندما احتدمَ بينهما الخلاف قررا أن يذهبا إلى الثعلبِ ليقسمها بينهما بالعدل!

فقالَ لهما الثعلب: جئتما إلى القاضي العادل، وتناولَ سكينة وقسمَها إلى قطعتين.

فقالَ الكلبُ: ولكن قطعة القط أكبر!

فقالَ له الثعلبُ: أنتَ على حق، وأخذَ قطعةَ القطِّ وقضمَ منها قضمةً.

فقالَ القطُّ: الآن صارت قطعة الكلب أكبر!

فقالَ الثعلبُ: أنت على حقٍ أيضاً، وأخذَ قطعةَ الكلبِ وقضمَ منها قضمة.

وهكذا ظلَّا يُراجعانه، فيقضمُ من الجُبن، حتى أكله كله أمام ناظريهما!

ليس كل شخصٍ أهلاً ليدخل حكماً في الخلافات،

البعضُ كالخياطين يُصلحون الثُقب الموجود في الثوب،

والبعضُ كآلاتِ الحفرِ كل تدخُّلٍ منهم يزيدُ من عمقِ

الهُوّة!

ولأنها الحياة، تقعُ الخلافاتُ دوماً بين الناس،

وقد يحتاجون إلى من يُقرِّبُ بينهم وجهات النظر، ويُدوِّرُ الزوايا،

ولكن اختيار الأشخاص الذين نُدخلهم في خلافاتنا

يجب أن يكون دقيقاً كاختيارِ الأشخاصِ الذين نُدخلهم إلى حياتنا،

وإلا تحوَّلَ الأمرُ إلى نشرِ غسيلٍ وفضائح،

وما منه فائدة غير أن الخطوات ستتباعدُ أكثر مما كانتْ مُتباعدة أصلاً!

الشخصُ الذي نلجأُ إليه لحلِّ مشكلةٍ،

يجبُ أن يكون أولاً غير مُستفيد من بقاءِ هذه المشكلة!

كان أحد الجزارين يطرقُ بالفأسِ على عظمةِ فخذِ البقرةِ ليكسرها،

فتطايرتْ منها قطعٌ صغيرةٌ دخلت إحداها في عينه،

فقصدَ طبيبَ القريةِ الوحيد الذي عرفَ المشكلة مُنذ أول لحظة،

ولكنه أعطى الجزارَ قطرةً ليستخدمها وأمرَهُ أن يُراجعَهُ كل يومين!

وبالفعل كان الجزارُ يحضرُ كل يومين حاملاً معه اللحم إلى الطبيب،

فكان يُجددُ له العلاج الذي لم يكن علاجاً أصلاً.

وبعد فترةٍ جاءَ الجزارُ إلى الطبيبِ فلم يجده،

ووجدَ ابنه الذي يدرسُ الطب أيضاً،

فألقى الابنُ نظرةً سريعةٍ في عينِ الجزار،

وقالَ له: مُشكلتُك بسيطة،

وقامَ بانتزاعِ العظمةِ من عينه.

عندما حضرَ الأب، أخبره ابنه بما حدث،

فقالَ الأبُ لابنه: أرِني كيف ستأكل اللحم بعد اليوم!

خرجَ العابدُ الفقيه محمد بن واسع،

في جيش قتيبة بن مسلم لفتح مدينة كابل،

وعندما اشتدَّ حصارهم لها دون جدوى،

قال قتيبة لجنوده: انظروا لي ما يفعل محمد بن واسع،

فذهبوا يبحثون عنه، فوجدوه رافعاً سبابته إلى السماء،

وهو يقول: يا حيُّ يا قيوم، يا حيُّ يا قيوم،

فعادوا إلى قتيبة وأخبروه بما رأوا،

ففرح بذلك، وقال: أبشِروا بالفتح،

إن سبابة محمد بن واسع في الجيش خير من ألف سيف!

وأنت، إذا ما اشتدَّ حصار الأيام،

وأخذتَ بالأسباب ولكن الفتح تأخر،

فأصلِح قلبكَ، وارفعْ سبابتك إلى السماء،

كل تعقيدات الدنيا حلها في السماء!

روى «اليافعيُّ» في كتابه «مرآة الجنان»،

أن الوزير ابن الزَّيات كانَ ظَلوماً قاسياً،

وأنه جعلَ للمساجين من خُصُومِهِ صندوقاً ضيقاً، في جوانبِهِ مسامير،

يضعهم فيه حشراً، فإذا أرادَ المسجونُ أن يتحركَ جرحته المسامير في أنحاءِ جسده،

ولم يكُنْ قد سبقه إلى هذا الصنف من العذابِ أحد من الناس!

وكانَ إذا قالَ له أحدُ المساجين: أيُّها الوزير، ارحمني!

يقولُ له: الرحمةُ خَوَرٌ في الطَّبع!

ثم دارت الأيام، وغضبَ الخليفةُ المُتَوَكِّلُ على ابنِ الزيات،

وأمرَ به أن يُحبسَ في الصندوقِ الذي كانَ يحبسُ به الناس.

فقالَ للخليفة: يا أمير المؤمنين، ارحمني

فقالَ له المُتَوَكِّل: الرحمةُ خَوَرٌ في الطَّبع!

ولبثَ ابن الزيات أربعين يوماً في الصندوق، ثم مات!

إنَّ من سُننِ اللهِ في الدُنيا أنه جَعَلَها دوَّارة،

وكل إنسان سيشربُ من الكأسِ التي سقى منها غيره،

الإساءة إساءة، والإحسان إحساناً، من كَسَرَ كُسِرَ، ومن جَبَرَ جُبِرَا

ومن قسا قُسِّيَ عليه، ومن لانَ ألانَ الله له القلوب، بل والصخر،

وما حُفِظَتْ دعسة إبراهيم عليه السلام في المقامِ

إلا لأنه ألانَ قلبه لله فألانَ اللهُ تعالى الصخرَ تحتَ قدميه،

وإلا فإنه ما جرتْ العادة أن تنحفرَ أقدام الناسِ في الصخور!

نحن حين نُعاملُ الناس اليوم فإننا نختارُ الناس الذين سيُعاملوننا غداً،

ما نحن إلا زُرّاعٌ نحصدُ ما زرعناه، كيلاً بكيل، ولا أحد أعدل ولا أوفى من الله!

خرجَ النبيُّ ﷺ متستراً رفقة أبي بكرٍ إلى المدينة،

فعادَ إلى مكة ودخلَها في وضحِ النهارِ من أبوابِها الأربعة،

جزاءً وفاقاً، وهذه بتلك!

وإبراهيمُ عليه السلام أول من يُكسى يوم القيامة من الخلائق

لأن ثيابه احترقت حين أُلقي في النار،

جزاءً وفاقاً وهذه بتلك!

وما امتدّتْ أيدي إخوة يُوسف تطلبُ الصدقة

إلا لأنها باعته من قبل فقبضتْ ثمنه،

سواءً بسواء، وهذه بتلك!

أحسِنوا سُقيا الناس اليوم تُحسنون مشاربكم غداً، وهذه بتلك!

يقول عبدُ الرحمن السّقاف في كتابه الماتع «العود الهندي»:

لا يتأثّرُ بالفراقِ إلا أهل النفوس الكريمة،

ألا ترى أنك لو ربطت حماراً مع فرس،

ثم فرّقتَ بينهما...

فإن الحمار لا يتأثر، ولكن الفرس يُكثر الحنين!

فلا تتعجبْ ممن هانت عليه عِشرتُكَ،

ولا ممن طابَ له هجركَ بعد وصال،

هكذا هم الناس: خيولٌ وحميرا!

في كتاب «الحكمة والأحابيل العربية»

أنَّ وزيراً خدمَ الملك ثلاثين عاماً بمُنتهى الإخلاصِ والتفاني،

وصارَ عنده ذا حظوةٍ كبيرةٍ، مما أوغرَ قلوب الحُسَّادِ عليه،

الذين لفَّقوا حوله القصص، وأطلقوا الإشاعات،

إلى أن صدَّقَها الملكُ، وأصدرَ أمراً بإعدامِ الوزيرا

وكانَ الملكُ ينفذُ حُكمَ الإعدامِ بأن يربطَ المتهم قرب حظيرة الكلابِ الجائعةِ

ثم يُفلتُها، فتنهشُه وهو حي!

وقَبِلَ الوزيرُ الحكمَ دون اعتراضْ،

غير أنَّه طلبَ من الملكِ أن يُمهلَه عشرة أيام ليُودِّع عائلته،

ويزور أقاربه، ويُنجز بعض الأمور الشخصية، ووافقَ الملك دون تردُّد.

ذهبَ الوزيرُ إلى بيته، وأخذَ كل ما يملك من ذهب،

وتَوَجَّه إلى حظيرةِ الكلاب، ودفعَ الذَّهب إلى الرجل الذي يقوم عليها،

وطلبَ منه أن يسمحَ له بالاهتمامِ بالكلابِ وإطعامِها،

وقَبِلَ الرجل هذه الصفقة،

فهو فوق أنه سيستريحُ من عمله لعشرةِ أيام، سيحصلُ على الكثيرِ من الذهب!

وعلى مدة عشرة أيام كان الوزيرُ يُطعمُ الكلاب، ويمسحُ على رؤوسها، ويهتمُّ بها!

وعندما حانَ اليوم الموعود، جاءَ الملكُ ليشهد الإعدام،

ورُبِطَ الوزير، وأُطلِقتْ الكلاب، فتفاجأ الجميعُ

أنها بدأت تمسح أجسادها بالوزير، وتتقرَّب منه.

وعندما سألَ الملك وزيرَه عن سببِ عدمِ التهامِ الكلاب له، قال:

لقد اعتنيتُ بهذه الكلاب عشرة أيام فلم أهُنْ عليها،

وخدمتُكَ ثلاثين سنة فألقيتَ بي إلى الموت!

احمرَّ وجه الملكِ خجلاً، وشعرَ بالعار، ولم يكتفِ بالعفو عن الوزير،

وإنما سلّمه الأشخاص الذين وشوا به، وطلبَ منه قتلهم،

ولكنه عفا عنهم، واكتفى بإبعادِهم عن البلاط!

في الحياةِ ليس بالضرورةِ أن تردَّ المعروف، ولكن كُنْ أرقى من أن تُنكره،

إنَّ طعمَ الجحودِ مُرٌّ، مُرٌّ جداً!

لا شيء أكثر وجعاً من أن يقتلعكَ الشخص الذي حاولت أن تزرعه!

ولا شيء أشدّ مرارة من أن تُصفعَ باليدِ التي طالما قبّلتها!

ولا شيء أشد عذاباً من أن تأتيكَ الضربة من الشخصِ الذي

لطالما حميته من الضرباتِ.

وما أجمل «معن بن أوس» حين لخّص الجُحود في بيتين من الشعر فقال:

أُعلّمه الرماية كل يومٍ

فلما اشتدّ ساعده رماني

وكم علّمته نظم القوافي

فلما قال قافية هجاني!

في العام 1926 وفي مدينة سان بطرسبرغ،

زار مريض طبيباً نفسياً شهيراً،

وشكا له ما يُعانيه من الكآبة،

وبعد محادثة طويلة وتشخيص،

قرر الطبيبُ أن هذا المريض ينقصه بعض الفرح،

فقال له: عليك بقراءة بعض القصص الفكاهية،

وإن أفضل الجميع في هذا المجال هو «ميخائيل زوشينكو»،

اقرأ له، وستجد متعة كبيرة،

فقال له المريض وهو يتنهد: أنا ميخائيل زوشينكو!

في النفس البشرية أعماق ومحيطات أكثر مما في هذا الكوكب،

فلا تنخدعوا بما تراه عيونكم،

خلف الضحكات جروح غائرة يُخبئها الناس عن الناس،

ووراء السَّفر الكثير ثمة حزن عميق مقيم،

أعمى من لا يرى إلا ما يرى!

شأن الدنيا أن تضيق أحياناً، فننظر إليها بعيوننا البشرية،

التي لا ترى إلا ما هو ماثل أمامها، فنراها قفلاً لا مفتاح له!

ولكن لو نظرنا إليها بعيون الإيمان لعرفنا،

أن الضيقَ مُؤذنٌ بالفرج!

وأن الهمومِ إذا تكاثرت أوشكت أن تتساقط كلها،

هناك لحظة مفصلية تبلغُ فيها الكروب ذروتها،

فإذا ما أسلمَ العبدُ فيها كل أمره لله،

وقطع أمله ورجاءه بالناس وعلّقه بربّ الناس،

أتى الفرجُ معجزةً!

في اللحظة التي بلغَ أذى قوم نوحٍ عليه السلام له ذروته،

ونظر إليهم، وعلمَ أنه لا أمل يُرجى منهم،

رفعَ ملفَّ القضيةِ من الأرض التي ضاقت عليه،

إلى السماء التي كان يعرفُ أن كلَّ المُتسع فيها،

جاء الأمرُ ببناء السفينة!

وفي اللحظة التي وُضِعَ فيها إبراهيم عليه السلام في كفَّة المنجنيق،

ليُلقى به في النار التي أوقدوها لأيامٍ، بدا للناظرِ أن لا خلاص له!

ولكنه قلب الخليل الذي يعرف أنه لا يفك الكرب إلا الله،

حسبي الله ونعم الوكيل، هذا ما قاله،

جملة واحدة خرجت من قلبٍ يُؤمن بها حقاً،

غيّرَ الله تعالى لأجلها قوانين الأرض،

فصارت النار الحارقة برداً وسلاماً!

وفي اللحظة التي وصلَ فيها موسى عليه السلام،

ببني إسرائيل إلى شاطئِ البحر وفرعون وراءهم،

نظر بنو إسرائيل للأمر بعيونهم،

ونظرَ إليه موسى عليه السلام بقلبه،

وحين قالوا له: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

قال لهم: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

فجاءه الأمر أن يضرب البحر بعصاه،

فإذا به ينشقُّ، ويصيرُ طريقاً يابسةً،

عبرها بنو إسرائيل دون أن تبتل أقدامهم حتى!

على أن السّرَ لم يكن بالعصا التي يحملها موسى عليه السلام بيده،

وإنما بالإيمان الذي يحمله في قلبه!

وفي اللحظة التي ضاقت بها الدنيا في عيون لوطٍ عليه السلام،

ضيوفه عنده، وقومه يريدونهم، ولا قوة لديه ليمنعهم،

ناجى ربّه يخبره أنّ المنافذ سُدّت،

وأنْ لا أمان له إلا به،

انبثقَ الفَرجُ من رحم المعاناة،

وأخبره ضيوفه أنهم إجابة دعائه الذي دعا به،

فحملَ جبريل عليه السلام قُرى الفاحشة بطرف جناحه،

وطار به عالياً حتى سمعت ملائكة السماء نباح الكلاب فيها،

لشدة ما اقترب بها من السماء الدنيا،

ثم قلبها رأساً على عقب!

هو الله، فلا تيأس!

وفي اللحظة التي حاصر فيها الأحزابُ المدينة المنورة،

وضاقت الأرض على النبيّ ﷺ ومن معه،

وعلموا أنْ لا ملجأ لهم من الله إلا إليه،

وانقطع رجاؤهم من العباد وتعلّق برب العباد،

جاءت الريح عاتية فقلبت قدور الأعداء، وقلعت

خيامهم، واطفأت نيرانهم،

فولوا مُدبرين!

هو الله، فترقب منه الفرج!

تقولُ الحكاية:

إن ملكاً ظالماً استدعى أمهرَ نجارٍ في المملكة،

وطلبَ منه أن يصنعَ له كُرسياً جديداً،

بدل هذا القديم الذي يجلسُ عليه،

وأمره أن يكون غايةً في الإتقان،

جميلاً، متيناً، مبهراً للعيون!

فرح النجار بهذه المهمة فرحاً عظيماً،

واعتبرَ الأمر تشريفاً لا مجرد كرسي من خشب،

ومضى يعملُ عليها أياماً حتى انتهى منها

وبالرغم من أن الكرسي كانت رائعة،

إلا أن الملكَ الظالم كان وقتها في حالة غضب،

فلم يُعجبه هذا العرش الجديد،

وأصدر أمره على الفور: يُعدمُ النجار في الصباح الباكر!

ترجّى النجارُ الملكَ أن يسمحَ له،

بقضاء الليلة الأخيرة من عمره في بيته، مع زوجته وأولاده،

فوافق الملك على هذا الطلب،

وفي البيت لم يستطع النجار أن ينام ليلته تلك،

وكيف ينام من كان في الصباح موعد إعدامه؟

غير أن زوجته قالت له: لا عليك،

نَم، الرَّبُ واحدٌ، والأبواب كثيرة!

وبالفعل نام النَّجارُ، ولم يستفق إلا في الصباح،

على صراخ الجنود، وصوت الخيول عند باب بيته،

فلم يشك للحظة أنهم جاؤوا لاقتياده إلى حتفه،

وعندما فتحَ الباب، قال له رئيس الجُند:

ماتَ الملك، ونريدُ أن تصنعَ له تابوتاً!

مهما ضاقت الدنيا بك،

لا تنسَ أن الله لا يخلقَ أبواباً بلا مفاتيح!

ولا عسراً بلا يُسر،

إنه فقط يمتحنُ عباده ليطرقوا بابه، بابه وحده سبحانه،

ومتى ما رأى الله تعالى أنْ لا أحد أكبر منه في قلب عبده،

أذِنَ له بالفرَج،

فعلِّقْ قلبكَ بالله!

حملَ الروائي الانكليزي «ستيفن كينغ» روايته الأولى،

وطاف بها على عدد من دور النشر، ولكن دون جدوى!

وفي لحظة يَأسٍ ألقى الرواية في القمامة!

وعندما ذهب إلى غرفته أخذت زوجته الرواية،

وأرسلتها إلى دار نشر جديدة،

أعجبت الدار بالرواية ونشرتها فلاقت نجاحاً كبيراً،

الآن تخطتْ مبيعات كتبه ثلاثمئة وخمسين مليون نسخة حول العالم،

فإن كان من درس يُستفاد من هذه القصة،

فهو إذا أردتَ أن تعيد إنساناً إلى الحياة، ضَعْ في طريقه شخصاً يُؤمن به!

لهذا ابتعد عن كل عينٍ تستصغرك،

وعن كل يد تحاول أن تقص أجنحتك،

واقترب، اقترِبْ كثيراً ممن يقول لكَ: أنتَ تستطيع!

مرَّ رجلٌ من خراسان بمصر، وكانَ عالماً بالأحجارِ وخواصها،

وكانَ في بحثٍ دؤوبٍ عن حجرٍ يعرفه يطردُ الذُّباب،

فرآه عند بائعٍ للأحجار، فسأله عنه، فقال: خمسة دراهم!

فدفعها إليه الخراساني في الحال وأخذَ الحجر.

فقالَ له البائعُ ساخراً: هذا الحجرُ رأيته مُنذ أيام مع صبي فأخذته منه بحباتِ تمر،

وأنتَ لِحُمقك اشتريتَه مني بخمسةِ دراهم!

فقالَ له: قُمْ معي لأريكَ من الأحمق!

فأخذه بيده إلى بائعِ تمر، والذُّبابُ محيطٌ بوعاءِ التمر،

ووضعَ الحجر، ففرَّ الذُّباب، فأخذه مرة أخرى، فعادَ الذُّباب،

فوضعه مرة أخرى، ففرَّ الذُّباب.

ثم قالَ له: هذا حجرٌ يطلبه الملوكُ لموائدهم، ولو طلبتَ به خمسمائة لاشتريتُه منك!

العملةُ النقديةُ القديمةُ بالنسبة لي ولكَ مجرد قطعة خردة،

ولكنها عند عالمِ آثارٍ تُعتبرُ كنزاً!

والحجرُ الأثري الذي عليه كتابات غير مفهومة،

هو بالنسبة لي ولك مجرد حجر لا تزيد الكتابة من قيمته

ولكنه عند عُلماءِ الأنثروبولوجيا يُعتبر فتحاً علمياً!

عندي ديوان للمُتنبي بخطّ ابن جني، وفيه مُداخلات بخطّ المُتنبي نفسه،

كانَ الكتابُ بالأصلِ مخطوطة ثم طُبِعَ في جُزئين،

جزء طباعة حديثة، وجزء هو المخطوطة،

وأنا أحفظه في مكتبتي كأنه آخر ما تبقّى من كُنوزِ سُليمان عليه السلام،

ولكنه بالنسبةِ لبقيةِ أفرادِ العائلةِ مُجرد كتاب من ضمنِ مئاتِ الكتبِ في بيتنا!

ما أردتُ قوله إننا كبشر مثل هذه الأشياء التي ذكرتُها،

لن نشعرَ بقيمتنا إلا إذا كنا عند من يُقدرنا!

حجرُ الذُّبابِ كانَ حجراً مُلقى على الأرضِ،

وحين جاءَ من يعرف قيمته صارَ بالنسبةِ إليه ثروة!

ديوانُ المُتنبي لو أعطيته لبائعِ فلافل لمزّقه واستخدمه لِلفّ سندويشاته!

بالمقابل أنا لو أرادوا أن يبيعوني المُوناليزا بمئةِ دولار لن أشتريها،

لأنها ببساطة لا تدخل ضمن اهتماماتي!

كُونوا مع الذين يعرفون قيمتكم دوماً!

يقول المسعودي في كتابه الرائع «مُروج الذّهب»

كان من عادة المرأة العربيّة،

أن لا تُنوِّمَ ابنها وهو يبكي،

مخافة أن يسري الهَمُّ في جسمه،

فكانت تُضاحكه حتى ينام وهو مسرور،

فينمو جسده، ويصفو لونه ودمه، ويتفتح عقله!

ابتعد عن الذي يستعذبُ ألمكَ،

وتهون عنده دمعتكَ،

لا أحد له الحق أن يكسر قلبك، ويُبكي عينك،

وأسوأ من هذا كله أنهم يفعلون هذا باسم الحُب،

لا يا عزيزي، المُحب لا يُؤذي!

وكل واحدٍ منا يستحق أن يأوي إلى فراشه مطمئناً!

في كتابه «خُرافات»، يروي الأديبُ الروسي الشهيرُ «ليو تولستوي»

أنَّ دِيكَين تشاجرا على مزبلة، وكان أحدهما أقوى من الآخر،

فتغلّبَ عليه وطردَه، وصارَ مُنذُ تلكَ اللحظةِ الحاكم الأوحد للمزبلة!

فتجمعت الدجاجات كُلها حول الديكِ المُنتصر، وراحت تمتدحُ قوّته،

وتُسمِعُهُ عبارات الغزل والتمجيد!

وأرادَ الديكُ المُنتشي بالنصرِ أن تُعرفَ أمجاده في الساحةِ المُجاورة!

فطارَ إلى قمةِ مخزنِ الغِلال، وأخذَ يُصفّقُ بجناحيه، ويَصيحُ بصوتٍ عالٍ:

انظرُوا إليّ جميعاً، أنا الديكُ المُنتصر،

وليسَ لأيِّ ديكٍ في العالمِ قوة كقوتي هذه!

ولم يكد الديكُ ينتهي من كلامه، حتى انقضَّ عليه نسر، قتلَهُ،

وأمسكَ به بمخالبه، وحملَهُ إلى عُشِّه ليُطعم به صغاره!

النجاحُ الذي يُؤدي إلى الغرورِ مَقتلة،

والإنسانُ الذي لا يستطيع تقبُّل تبعاتِ النجاح،

الفشل له في أولِ الطريقِ أفضل برأيي،

والسببُ أن الفشل يكسرُ النفس ويُؤدِّبها، ويجعلُ الإنسان حذراً،

مُتأمِّلاً في تجربته، مُحاولاً ألا يُكررها بذاتِ الأدواتِ والظروف،

كي لا يصل إلى النتائج ذاتها.

ولستُ أبالغُ إذ أقولُ إنّ الفشل يهبنا الحكمة أكثر ممَّا يفعلُ النجاح،

لا لأنِ الفشل جيد والنجاح سيء،

بل لأن النفس البشرية فرس جموح، وقلّما تجد من يستطيع أن يلجمَ نفسه!

الأمرُ أشبهُ بالمرضِ والعافية،

نحن حين نمرضُ ننكسر، نعرفُ حجمنا الحقيقي،

نرى ضعفنا على حقيقته، نلوذُ بالله تعالى كما يليقُ بالعبدِ أن يلوذ!

قرأتُ مرةً كلاماً لطبيبٍ زارَ مأوى لمرضى السرطانِ

الذين هُم في حالةٍ متقدمةٍ من المرض، وميؤوس طبياً من شفائهم،

يقول: لفتَ نظري أن الجميعَ كانوا إما يحملون المصاحف، أو السُبحات،

لقد رأى هؤلاء الدُنيا على حقيقتها!

وهذا ما قصدتُهُ بالضبطِ أن المرضَ يُؤدبنا!

أما في الصحةِ فنحنُ ننسى كثيراً، يفوتنا السبب الذي خُلقنا لأجله،

ونغفلُ عن المكانِ الذي سينتهي إليه مطافنا!

وعلى كلِّ حال، فالتعميم ليس صائباً في كلِّ حال،

فكثيرٌ من الناجحين والأثرياء حافظوا على تواضعهم،

وكثيرٌ من الفاشلين يُشعرونك أنهم هُم الذين يُديرون هذا الكوكب!

ولكنَ الفكرة من كل هذا أن لا يجعلنا النجاح نُبالغُ في قدراتِنا فنخطو خطواتِ أكبر منا!

كان الموسيقار «بليغ حمدي» صديقاً لعبد الحليم حافظ،

وكان بليغ حمدي يعيشُ قصة حُب من طرف واحد،

ولكن عبد الحليم حافظ كان يعلم بهذا،

وفي إحدى السهرات تندّر عبد الحليم على مشاعر بليغ،

فكتبَ إليه بليغ حمدي يقول:

عزيزي عبد الحليم، تحية وبعد:

أودُّ لفتَ انتباهكَ إلى أن تعليقك الساخر اليوم،

ونحن في السَّهرة قد جرحني جرحاً أليماً،

الرجاء عدم التعامل مع مشاعري بهذا الاستخفاف،

والاستهانة بحب عظيم لا أظن أنه يمكنك أن تفهمه،

لا تتصل بي بغرض الاعتذار في الأيام القادمة،

حتى أصفو لك، وأستطيع الكلام معك ثانيةً!

أما أنتَ: فرأس مال الإنسان قلبه، فترفَّق!

لن يستطيع أحد أن يفهم مشاعر أحدٍ ما لم يدخل قلبه!

وما يبدو لكَ شعوراً سطحياً هو حياة إنسان آخر كلها!

واللسان ذاك العضو الطري أحياناً يكون أقسى من السيف!

لعلَّكَ تشكو ضيقاً في رزقك،

ولعلَّكَ تقولُ: ليس لي من أسباب الرزق، غير ما أعرف!

لا يأتيني رزقي إلا من هذا الثقب الضَّيق،

الذي يبدو لي وكأنه خرم إبرة!

وظيفة ليس لي غيرها،

أو راتب هزيل بالكاد يصل بي إلى آخر الشهر!

أو لعلَّ الأمر عندك أضيق من هذا،

فأنتَ تبحثُ عن عملٍ ولا تجد،

وتنسى تحت وطأة هاجس الرزق أن العمل،

باب من أبواب الرِّزق، وأنَّ الرازق هو الله!

فيضيقُ صدركَ إذ تحسبُ أنك مدبر نفسكَ ورازقها،

وما أنتَ نهاية المطاف إلا مخلوق،

لن يفيض رزقك عليكَ أو يضيق إلا بأمر خالقك!

وإنها دار امتحان ليس إلا،

وأن المرء ليس له قرار فيما يُمتحنُ به،

ولكننا نحن البشر نحسبُ جهلاً،

أن أصعب امتحان في الدنيا هو امتحاننا نحن!

قيل لأعرابيَّة: من أين معاشكم؟

فقالت: يا هذا، لو كان معاشنا من حيث نعلم ما عشنا!

ولكنه الله، يغلق باباً، ويفتح آخر!

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في كتابه الذكريات:

حدّثني الشيخ صادق المجدوي، وكان دبلوماسياً سابقاً في مصر،

أنه كُلِّفَ مرةً بمهمة سياسية عاجلة في روسيا،

وخافَ أن يمرَّ ببلدٍ لا تؤكل ذبيحة أهله شرعاً،

وكان عنده دجاجتان فأمر بذبحهما،

وطبختهما زوجته، وجعلتهما له زاداً لسفره،

فلما وصلَ إلى روسيا دعاه شيخ مسلم إلى الغداء،

فكرِهَ أن يأخذ الدجاجتين معه إلى دار الشيخ،

فرأى في طريقه امرأةً مسلمةً معها أولادها،

ورأى الجوع بادياً عليها وعليهم،

فدفعَ إليها الدجاجتين!

ثم لم تمضِ ساعة حتى جاءته برقية مفادها:

اِرجعْ إلى مصر فقد صُرف النظر عن المهمة،

فكانت هذه الرحلة لأمرٍ واحدٍ:

وهو أنّ الدجاجتين كانتا في داره ولكنهما ليستا له،

وإنما لتلك المرأة وأولادها!

فحملها بنفسه أربعة آلاف كيلومتر ليوصلهما إليهم!

إن كان لكَ رزقٌ في شيء،

فسيُحملُ لكَ حتى عتبة دارك،

وإن لم يكن لكَ رزق في شيء،

فلن تأخذه ولو كان في خزانة غرفة نومك!

هذا لا يعني أن نتوقف عن العمل،

ولا يعني أبداً أن الرزق لا بُدَّ له من السّعي،

هذا يعني فقط أن تُعلِّقَ قلبكَ بالله!

وإنكَ متى فعلتَ هذا تُريح وتستريح،

أن تؤمن بعدله وأنه لا يظلم مثقال ذرة،

وأن تُؤمن بحكمته وإن غابت هذه الحكمة عنكَ،

أن تُطهِّرَ قلبكَ وعينكَ،

أنْ لا تنظر إلى أرزاق الناس بعين مسمومة،

فمن نظر إلى ما في أيدي الناس اتسخَ قلبهُ!

واحتقرَ رزقه، وأكلته الحسرة كما تأكلُ النارُ الحطب،

فلا هو نال مالَ الأغنياء، ولا قناعة الفقراء!

صحح عقيدتك يطمئن قلبك!

لا يوجد في الحياة فرص ضائعة،

كل ما فاتكَ لم يُخلق لكَ،

وكلُّ ما خُلقَ لكَ لن يفوتكَ!

تقول الحكاية:

كان لأحد التجار الأثرياء ولد وحيد مُدلل،

يصرفُ مال أبيه يمنةً ويسرةً دون حساب،

وكان أكثر ما يشغل هذا التاجر،

أنه إذا مات، سيرثه هذا الولد المستهتر،

وسيقومُ بتبديد كل هذا الثروة في أيام،

فشكا همَّه إلى صديقٍ حكيمٍ له،

فقال له الحكيم: أنتَ تتحمل المسؤولية!

سأله التاجر باستغراب: أنا، كيف؟

فقال له: أنتَ دللته كثيراً، فصار مستهتراً،

علِّمه قيمة المال، واجعله يكسب رزقه من عمل يده،

أنتَ عندك قوافل كثيرة للتجارة اجعله على رأس قافلة منها،

ليتاجر، ويبيع، ويخسر، لا فرق،

المهم أن يعتمد على نفسه، ومع الوقت سيتعلم!

استحسنَ التاجر هذه الفكرة، وقرر أن ينفذها،

وعندما فاتحَ ابنه بالأمر،

رفضَ هذا الأمرَ رفضاً قاطعاً، مُتذرعاً أنه لا يحسن التجارة.

فأخبره أبوه أن هذا الأمر لا يهم،

وأنه سيجعل معه مساعدين يستشيرهم إذا أراد،

ولكن الفكرة تكمن في أن يُحصّل رزقه بنفسه!

وتحت إلحاح الأب، وافق الابن على مضض!

وفي الصباح الباكر كان على رأس القافلة،

سارث القافلة حتى المساء، ثم وضعت رحالها للمبيت،

وفي صبيحة اليوم التالي نهض الابن باكراً،

ووقف على تلة مشرفة ينظرُ إلى الصحراء، فإذا به يرى عجباً!

أسدٌ اصطادَ أرنباً، وحمله في فمهِ، وجاء إلى باب غار،

ثم وضعه هناك ومضى!

وما هي إلا لحظات حتى خرج من الغار ثعلب أعمى،

تبعَ الرائحة حتى وصل إلى الأرنب،

ثم حمله بفمه، وعاد إلى الغار ليأكله!

قال الابن في نفسه: أي ساذجٍ أبي؟!

إذا كان الله لم ينسَ الثعلبَ الأعمى من الرزق،

فهل سينساني أنا الشاب المبصر، فعلامَ العمل؟!

ثم أمر القافلة أن تعود أدراجها،

وعند المساء كان الابن عند أبيه،

سأله الأب باستغراب: ما الذي عادَ بكَ؟

فحدّثه بما رأى، ثم قال له:

يا أبي، الله لم ينسَ الثعلبَ الأعمى من الرزق، فهل سينساني؟!

ابتسمَ الأب، وقال لابنه: يا بُنيّ،

أعلمْ أن الله لا ينسى أحداً من الرزق،

ولكني أردتُك أسداً يُعطي، لا ثعلباً يأخذ!

وأنتَ بعد هذه القصة، اسعَ أن تكون الأسد،

وتجنَّب قدر الإمكان أن تكون الثعلب،

ولكن عليكَ أن تعلم يقيناً،

بأنك سواءً كنتَ الأسد، أو الثعلب، فإن رزقك آتيكَ لا محالة!

اقرأ سورة الكهف بقلبك هذه المرّة،

وتوقف عند قصة اليتيمين،

وليٌّ من أولياء الله الصالحين هو الخضر،

ونبي من أولي العزم من الرُّسل هو موسى عليه السلام،

قطعا بلاداً كثيرة ليقيما الجدار، كي لا يضيع مال اليتيمين!

إذا كتبَ الله لكَ أمراً فإنه لا يوصله لكَ فقط،

وإنما يسخّر لكَ من يحميه لكَ حتى يحين الوقت!

بهذه الطريقة المعجزة يُدبّر الله الرزقَ،

وبهذه الكيفية المدهشة يسوقه إلى عباده،

وكل شيءٍ هكذا!

رغيفُ الخبز الذي تأكله، عَمِلَ عليه أمة من الناس ليوصلوه إليكَ!

هناك فلاح حرث حقله، وزرع قمحه، ثم حصده،

وهناك من طحنه، وهناك من حمله من بلد إلى بلدٍ ليبيعه،

وهناك من اشتراه، فعجنه، وخبزه،

ليصل إليك أخيراً لأنه من البداية لكَ!

زوجتكَ كانت تُربى في بيت أهلها خليةً خلية،

لم تتكلف أنتَ من هذا شيئاً،

أسرة كاملة تعمل على بناء إنسانة،

مكتوب أنها لكَ قبل أن تولد أنت، وتولد هي،

بالله عليكَ، أبعدَ هذا يقلق إنسان على الرزق،

أو يحسدُ أحدٌ أحداً على شيءٍ أعطيه،

أو يسخط إنسان إلى شيءٍ حُرم منه،

ينقصنا فقط أن نفهم،

ينقصنا فقط أن نتأدب مع الله!

في مدينة «مورمانسك» في روسيا،

هناك نصب تذكاري للقط «سيمين»،

الذي سافر من موسكو إلى مورمانسك،

قاطعاً ألفي كيلومتر على قدميه،

من أجل أن يعود إلى أصحابه!

اجعَلْ هذه الحقيقة نُصب عينيك:

الظروف مجرَّد حُجَّة، من يريدُ يستطيع،

ومن عانى من الفقد في غيابك، قلبَ الدنيا عليكَ،

ومن ظمأ من الهجر بحث عن ريِّ وجهك،

توقف عن تصديق الكلام المعسول، والوعود البرَّاقة،

فعل واحدٌ يُرى خير من ألف كلمةٍ تُقال!

وجدَ «تشوكو ليانغ» مستشارُ ملكِ الصين نفسَه أمام تهمةٍ،

بالتخابرِ مع العدو هو منها بريء،

وقد عزمَ الملكُ على قتلِهِ،

ولكنه لم يُرِدْ أن يقتلَهُ بتهمةِ الخيانةِ التي لا دليل عليها،

وإنما بتكليفه بمهمةٍ مستحيلةٍ يفشل بها!

طلبَ منه الملكُ أن يؤمِّن للجيشِ مئة ألف سهمٍ في غضون ثلاثة أيام،

وكانت هذه مهمة مستحيلة خصوصاً أنهم خارج المدينة فلا يُمكن شراء الأسهمِ ولا صنعها!

ولكن «ليانغ» المعروف بذكائه الخارق،

أحضرَ عشرين قارباً، ملأها بالقشِّ، وألصقَها ببعضها،

وفي المساءِ حيث كان الضبابُ كثيفاً أرسلَ القوارب تجاه معسكر العدو.

ظنَّ الأعداءُ أنَّ هذه خدعة حربية،

إنهم لا يعرفون ما هذا الشيء الذي يزحفُ نحوهم، ومن المُغامرةِ التحقُّق عن قُرب،

فأمطروا القوارب بالسِّهامِ التي كانت تنغرزُ بالقشِّ وتبقى سليمة،

وبعد ساعتين سحبَ «ليانغ» القوارب، ونزعَ منها مئة ألف سهم،

وقدَّمَها للملكِ وشرحَ له كيف فعلَ هذا كي لا يكسر له كلمته.

اعتذرَ الملك لمستشاره وعادت المياهُ إلى مجاريها!

الأشخاصُ الذي تتعامل معهم كأنك تسير في حقلِ ألغامٍ،

لا تعلم متى ينفجرُ أحدها ويُطيحُ بك، غادِرْهُم على الفور!

لا شيء أسوأ من علاقةٍ تُبقيك على حذرٍ على مدارِ الساعة،

ستحسبُ حساب الكلمة الواحدة ألف مرة،

وتزِنُ التصرف بميزانِ مزاجيتهمِ ألف مرة،

وحدهم من تكون بتلقائيتك معهم، من يُشعرونك أنك آمنٌ وإن أخطأتَ،

تشبَّث بهم بأسنانك وأظفارك!

لا شيء أصعب من أن تكون في امتحانٍ دائم،

عليكَ أن تُثبتَ ولاءَكَ ووفاءَكَ كلَّ لحظة،

هذا يجعلكَ ترى الحياة ساحة حرب ليسَ لكَ فيها من هُدنةٍ،

تلتقطُ فيها أنفاسَكَ غير لحظاتِ الرضى التي تجدها

منهم،

ولا أظن أحداً في هذا العالم يتطلعُ إلى حياةٍ كهذه!

وقعت الفنانة «سامية جمال»،

في حُب الأمريكي «سيبرد كينج»،

الذي قال لها:

أؤمنُ بأي إلهِ تُؤمنين به، فأنتِ لن تُؤمني إلا بإله عظيم!

وأعلنَ إسلامه من أجلها،

وأسمى نفسه «عبد الله» ليتزوجها،

وكتبت سامية كل شيءٍ باسمه لتخبره كم تُحبه،

وبمجرد أن تمَّ الزواج أخذَ كل شيءٍ ورحل!

في هذه الحياة ستقابل أشخاصاً على استعداد،

أن يتخلوا عن أي شيءٍ ليصلوا إلى مآربهم،

مقدرة البشر على التلون مخيفة،

فلا تختبر النهر بكلتا قدميك،

أعبره بحذر، قَدَمٌ تِلوَ الأخرى!

في «المهابهاراتا»، وهي ملحمة هندية كُتبث في القرن الثالث قبل الميلاد،

أن أحد أتباعِ الديانةِ «البراهمية»، كان ضليعاً في «الفيدا»

وهي الكتب الأربعة المقدسة عند الهندوس،

وكان أيضاً مُحارِباً شرساً، فقدَّمَ خدماتٍ كثيرةً لصديقه الذي اعتمدَ على مكانته الدينية،

وشجاعته ليصير ملكاً للبلاد!

وكان هذا البراهمي كلما رأى الملك، قالَ له: أهلاً بصديقي!

فكان الملك يقول له: كنا صديقين من قبل،

ولكن صداقتنا كانت تقومُ على ما لدينا من سُلطة وإمكانات،

لقد صادقتُك لأن هذا يخدم مصالحي!

أما الآن فلا غنيَ يُصادقُ الفُقراء،

ولا قويَ يُصادقُ الضُعفاء، فمن يحتاجُ إلى صديقٍ قديم؟!

يا للعُقوقِ والنكرانِ ما أقبحهما!

أن يكسر الأعمى عكازه أول ما يُبصر،

وأن يزدريَ الإنسانُ الأيدي التي ساعدته طويلاً على النهوض،

لا شيء أكثر ألماً من أن يكسركَ الشخص الذي أمضيتَ عُمركَ محاولاً ترميمه!

ولا شيء أكثر وجعاً من أن يقتلعكَ الشخص الذي حاولتَ أن تزرعه،

لا يؤلم الشجرة فأس الحطاب، الذي يُؤلمها أن يد الفأس كانتْ يوماً غصناً فيها!

يُعجبني قول أبي تمامٍ في هذا الباب:

وإنّ أولى البرايا أن تواسيه

عند السرور لمن واساكَ في الحزنِ

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا

من كان يألفهم في المنزلِ الخشنِ

الإنسانُ النبيلُ لا يتنكر لأصله، ولا يقابل المعروف بالجحود!

بل إنه يبقى مُتحيّناً الفرص لسدادِ معروفٍ أُسديَ إليه يوماً،

ولا شيء أحبّ إلى الله سبحانه وتعالى من الوفاء،

لهذا قرنَ بِرّ الوالدين بعبادته،

وجعلَ عقوقهما من أقبحِ الآثامِ لأنّ الوفي لا يُحب إلا الأوفياء!

إنَّ الذي يتنكرُ لأصله بعد أن يصل لم يكُن ذا أصلٍ مُنذ البداية،

وإن الذي تتغير أخلاقه بالمنصبِ والمالِ هذه هي أخلاقه مُنذ البداية!

المناصبُ والأموالُ لا تُغيِّر الناس وإنما تُظهرهم على حقيقتهم!

في كتب السِّيرة:

أنَّ أم شُريك رضي الله عنها،

وهبت نفسها للنبيِّ ﷺ فلم يقبلها،

وماتت عزباء!

وفي كتب التَّراجم:

أنَّ «كريمة المروزية» كانت من أئمة العلم والحديث،

وماتت وهي عمرها مئة سنة،

بِكراً ولم تتزوج أبداً،

وفي تاريخ الأندلس:

أن عائشة بن أحمد القرطبيَّة،

كانت أعلم نساء الأندلس بالعلم والفقه والشِّعر،

ماتت دون أن تتزوج،

الحياة في كنف رجل يخاف الله فيكِ جميلة جداً،

ولكن الحياة ليست رَجُلاً!

روى أبو نُعيم في «حلية الأولياء»، وابنُ الجوزيّ في «صفوة الصفوة»،

كان أبو مسلمُ الخولانيُّ إذا عادَ إلى بيته،

كبَّرَ عند باب منزله، فتسمعه زوجتُه فتكبِّرُ معه،

فإذا دخلَ صحن داره كبَّر أيضاً، فتكبِّرُ معه،

ثم تأتي إليه مسرعة فتخلعُ عنه رداءه ونعليه، ثم تأتيه بطعامه!

فجاء ذات يومٍ فكبَّر عند الباب، فلم يسمعْ إجابةً،

فدخلَ صحن الدَّار وكبَّر، فلم يسمعْ إجابة أيضاً،

فدخل غرفة زوجته فإذا هي في الزّاويةِ وقد اطفأت السّراج،

فظنَّ أن خطباً ما قد حدثَ لها،

فقال لها: ما لكِ يرحمكِ الله؟

فقالت له: أنتَ لكَ منزلة عند معاوية بن أبي سفيان،

وليس لنا خادم، فلو سألته خادماً لأعطاك،

وكان أبو مسلم مُجاب الدعوة، فرفعَ يديه وقال:

اللهمَّ من أفسدَ عليَّ أهلي فأعمِ بصره!

وكانت قد جاءت جارةٌ في ذاك النّهار إلى زوجته،

فقالت لها: علامَ ليس عندكِ خادم،

وزوجكِ له حَظوة عند معاوية، ولو سأله خادماً لأعطاه!

وبينما تلك المرأة في بيتها إذ قالت: من أطفأ السِّراج!؟

فقالوا: ما أطفأناه؟

فعلمت أنَّ هذا بدعاء أبي مسلم عليها،

فجاؤوا بها إليه يسألونه أن يدعو لها،

فرقَّ لحالها، ودعا لها، فعادَ إليها بصرُها!

كم من البيوت قد خُرِبت بالتَّحريض!

خرَّابو البيوت كُثر، ونحن نعيرُ لهم آذاننا!

تكون المرأة في بيتها آمنةً، مستورةً، راضيةً،

تعرفُ قلة ذات يد زوجها، وتتعايشُ معه،

وتعلمُ يقيناً أنه ما منعها شيئاً عن بخلٍ،

ولكن هذا هو رزقه، وتلك هي قسمته،

الحياة تمشي، والأيام تتعاقبُ، والفقر لا يمنعُ السَّعادة،

حتى تأتي إحدى خرَّابات البيوت إليها،

فتبقى تزنُّ في أذنها، وتتلو عليها وسوسات إبليس،

كيف ترضين بهذه الحال؟!

الأثاث قديم، أنتِ بحاجةٍ إلى ثيابٍ جديدة،

أنظري إلى فلانة وفلانة، تشتري وتسافرُ، وتقيمُ الولائم،

فلا تنصرفُ عنها إلا وقد أفسدتْها على زوجِها،

وحوّلت الرضى في قلبها إلى سخطٍ،

ثم تتكدر المعيشةُ، وتنهارُ البيوت، وتتفرقُ الأُسرة!

ويكون الرجلُ في عمله البسيط الذي،

يدرُّ عليه دخلاً قليلاً، ولكنه يستره،

راضٍ وقانع، متكيفٌ مع أقل الإمكانات،

والحياة رغم كل شيءٍ تسير،

إلى أن يأتيه شيطان من شياطين الإنس،

فيحرِّضه على ربِّ العمل، ويسأله كيفَ يرضى بهذا الأجر،

عندها تتغيرُ الدُّنيا في عينيه،

ويستحيلُ الرضى سخطاً، والقناعةُ طمعاً،

فيفقد عمله، ويجلس عاطلاً في بيته،

ثم تبدأ الحربُ في البيت على وقع متطلبات الحياة!

لا تُعيروا آذانكم للناس،

ولا تُحيلوا بيوتكم إلى كومات رُكامٍ بعد أن كانت عامرة،

التي يُزعجها أثاث بيتكِ القديم،

هل في نيّتها أن تشتري لكِ غيره،

أم هو التحريضُ ليس إلا؟

والتي تُمثل أنها مشفقة عليكِ لأنكِ لا تشترين ثياباً لكل مناسبة،

هل أهدتكِ يوماً ثوباً جديداً في مناسبة،

أم هي الفتنة ليس إلا؟

والتي تلبسُ لباس الشفقة عليكِ،

وتبدو متوجعة لأنكِ لا تسافرين في الإجازات،

هل فكّرتْ أن تدعوكِ مرّةً إلى مرافقتها،

أم هو لإفساد ليس غير؟

كونوا على حذرٍ،

فأحياناً يأتي الحسدُ على هيئةِ نصيحة!

والتَّحريضُ قد يلبسُ عباءة الشفقة،

ومن قبل قد قال إبليس لأبيكم آدم:

{هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ}

وما هي إلا شجرة المعصية،

التي يعقبُها مفارقة الجنة والنزول إلى الأرض،

ما أقبح الذئب حين يرتدي ثوبَ الحَمل!

في كتاب «قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط» للسرجاني،

عندما فتح المسلمون الأندلس،

كان عددهم اثنا عشر ألف مقاتلٍ فقط،

استطاعوا فتح شبه الجزيرة الإيبيرية،

ومنها زحفوا نحو بقية المدن،

وعندما سقطت مدينة غرناطة آخر معاقل المسلمين هناك،

كان بها وحدها أكثر من مليون مسلم!

درس بليغ مفاده: كُنْ انتقائياً،

ابحث عن الخَيرة لا عن الكثرة،

عن القلة الصادقة لا الأعداد المُزيفة،

الدنيا كلها معارك فأحسِن اختيار جُنودك!

روى «محمد خير يوسف» في كتابه الرائع «دكانة الكتب»،

أنّ عبد الملك بن مروان خرجَ حاجاً، ومعه خالد بن يزيد بن معاوية،

وكان خالد من رجال قريش المعدودين، وكان عظيم القدر عند عبد الملك،

وبينما هو يطوف بالكعبة، إذ رأى رملةَ بنت الزبير،

فعشقها عشقاً شديداً من أول نظرة، ووقعث في قلبه وقوعاً مُتمكناً!

فلما أرادَ عبد الملك الرجوع، همَّ خالد بالتخلف عنه.

فوقع بقلبِ عبد الملك تهمة، فبعثَ إليه فسأله عن أمره،

فقال: يا أمير المؤمنين، رملة بنت الزبير، رأيتها تطوف بالبيت، فأذهلت عقلي،

واللهِ ما أبديْتُ إليكَ ما بين جوانحي حتى عِيل صبري،

ولقد عرضتُ النوم على عيني فلم تقبله، والسلو على قلبي فامتنع منه.

فأطال عبد الملك التعجب من ذلك،

وقال: ما كنتُ أقول أنّ الهوى يستأثر مثلك!

فقال له: فإني أشدُّ تعجباً من تعجبك مني،

ولقد كنتُ أقول: إن الهوى لا يتمكن إلا من صنفين من الناس: الشعراء والأعراب.

أما الشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكر في النساء، ووصفهنّ، والتغزل،

فمالَ طبعهم إلى النساء، فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى، فاستسلموا له مُنقادين!

وأما الأعراب، فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها،

ولا يشغله شيء عنها،

فضعفوا في دفع الهوى فتمكن منهم، فما رأيتُ نظرةً حالت بيني وبين الحزم،

وحسنت عندي ركوب الإثم، مثل نظرتي هذه!

فتبسَّمَ عبد الملك وقال: كل هذا قد بلغَ بكَ؟

فقال: واللهِ ما عَرَتني هذه البلية قبل وقتي هذا!

فوجه عبد الملك إلى أهلها يخطب رملة إلى خالد، وذكروه لها،

فقالت: لا أنزل على ضرة، حتى يُطلق نساءه!

فطلّق امرأتين كانتا عنده، ورحل بها إلى الشام!

غريب هو العشق، واللهِ غريب،

وإنك لترى الرجل الحازم الذي له عقل يزن بلداً،

فتقول ما للعشق على هذا سبيل،

ثم تطرحه عين كحيلة بالضربة القاضية، فتسلبه نومه ورقاده،

وما على المحبين من سبيل، ولا جريرة،

وسبحان من يحول بين المرء وقلبه،

وإنما الجريرة على الفعل لا على المشاعر،

وعندما أصاب خالد بن يزيد سهم العشق في قلبه، طلب محبوبته للزواج،

فادخلوا البيوت من أبوابها، أو تعففوا، فإن العفة جهاد، واللهِ جهادا!

وقع الأمير «بيدرو» وريث عرش روسيا،

في حُب الخادمة «إنيسيا»،

فتزوجها، وأنجبَ منها أيضاً،

ولكن والده الملك «ألفونسو» لم يكن راضياً عن هذا الزواج،

وبتحريضٍ من طبقة النبلاء أمر الملك بقتلها،

فقُتلت في دير المدينة بدمٍ باردٍ أمام أطفالها!

ولكن «بيدرو» لاحق القتلَة واحداً بعد الآخر،

وكان ينتزعُ قلوبهم وهم أحياء، ويمزقها لأنهم مزقوا قلبه،

وبعد وفاة والده أصبح «بيدرو» هو الملك،

فأخرجَ جثتها من القبر ووضعها على العرش،

وأمرَ بمبايعتها ملكةً من قِبل الجميع!

بعض الوجع يبقى إلى الأبد،

وبعض الحُب لا يموت وإن ماتَ الأحبة!

يروي «إيسوب» فيلسوفُ الإغريق الشهير،

قصةً طريفةً في كتابه الماتع «خرافات»، يقولُ فيها:

كان لفلاحٍ شجرة تفاحٍ عاقرٍ لا تحمل الثمار،

فلم تكُن إلا مُستراحاً للطيورِ المُسافرةِ، ومأوىً للجنادبِ والحشرات!

فقررَ أن يقطعَها، وحملَ فأسه، وهوى عليها بأول ضربةٍ، ثم بالثانية،

فقامتْ العصافيرُ والجنادبُ تتوسّلُه أن يُبقي على الشجرة.

ولكنه لم يكترثْ لهذه التوسّلات أبداً، وتابعَ ما هو فيه!

وعندما ضربَ ضربته الثالثة كان قد وصلَ إلى تجويفها،

فأبصر خليّةً مليئةً بالعسل، ولما تذوّقَ العسل واستعذبه، ألقى فأسه،

وراحَ ينظرُ إلى الشجرةِ على أنها مُقدّسة، ويعتني بها عنايةً عظيمة.

إن المصلحة الذاتية وحدها هي التي تُحرك بعض الناس!

على ما يبدو أن بعض الأشياء لا تتغير على ظهرِ هذا الكوكب،

وأنّ الناس هم الناس في كل عصر، لا تتغير إلا الأسماء فقط!

المصلحةُ الذاتيةُ هي التي تُحرك بعض الناس!

هذا ما قاله «إيسوب» منذ أكثر من 2600 سنة،

وعلى ما يبدو أن الذين عاشوا قبل «إيسوب» أدركوا هذه الحقيقة،

كما نُدركها نحن اليوم، وكما سيُدركها الناس الذين سيأتون بعدنا!

هناك بشرٌ خيِّرون لا شك، هناك من يشقُّ طريقاً ليمشي عليها الناس،

وهناك من لا يمشي خطوة إلا إذا كان لهُ مصلحة فيها!

هناك من يزرعُ شجرة وهو يعرفُ يقيناً أنه لن يأكلَ منها،

ولن يجلس تحت ظلها، يزرعُها هكذا للناس،

وهناك من يقتلعُ شجرةً تنفعُ الناس فقط لتكون حطباً له!

هناك من يحفرُ بئراً في بلدٍ ناءٍ لن يكونَ من نصيبه منها قطرة ماء،

وهناك من يمنعُ الماء عن جاره!

عندما اخترعت «ميتسوبيشي» حزامَ الأمان

رفضت أن تُسجّلَ فيه براءة اختراع،

ومنحته مجاناً لكلِّ شركاتِ السيارات في العالم!

وعندما فقدَ الزوجان «ليلند وجين ستانفورد» ابنهما الوحيد

الذي كان يدرسُ في هارفرد

أسّسَا في كاليفورنيا جامعة ستانفورد ليكون كل أولاد المدينة أولادهما!

وعندما جاءَ التجارُ ليشتروا من عُثمانَ بن عفان قافلته عام الرمادة،

وعرضوا عليه أن يدفعوا له عن كلِّ درهمٍ ثلاثة،

أخبرَهُم أن الله وعده عن كلِّ درهمٍ عشرة، وتركَ القافلةَ للناس!

هناك بشرٌ خيِّرون جداً،

ولكن هناك بشر لا يُناولون أحداً شربة ماء ما لم يكُن لهم في ذلك مصلحة!

فكان اللهُ في عونِ من ابتلاه الله بهم!

في العام 2019 تُوفيت «توني موريسون»،

المرأة السوداء الوحيدة التي حازت،

على جائزة نوبل للآداب!

كانت في طفولتها تقضي الليل تقرأ وتكتب،

غير مكترثة لأمها التي كانت تقول لها:

نامي يا بُنيتي، إنهم لا يلتفتون للسود!

وأنت، في طريقكَ إلى القمة،

ستسمعُ كلاماً محبطاً،

وسيصور لكَ البعض أن الوصول مستحيل،

سواء كان هذا عن خوف عليكَ، أو خوفٍ منكَ،

فأكمِلْ طريقكَ، وآمِنْ بنفسك، واتبعْ شغفكَ،

العقبات ستبقى قابلة للتجاوز ما دمتَ واثقاً بنفسك!

77

روى «ابنُ الجوزيّ» في كتابه «عيون الحكايات»،

أن جزاراً وَلِعَ بجاريةٍ لبعض جيرانه،

فأرسلها أهلها إلى حاجةٍ لهم في قريةٍ أخرى،

فتبعها، وراودها عن نفسها،

فقالت: لا تفعل، أنا أشدُّ حباً لكَ مني، ولكني أخاف الله!

قال: فأنتِ تخافينه، وأنا لا أخافه؟!

فرجعَ تائباً، وأصابه العطش حتى كاد أن يموت،

فإذا هو بنبي من أنبياء بني إسرائيل،

فسأله: ما لكَ؟

قال: العطش!

فقال: تعالَ ندعو، حتى تظلنا سحابة إلى أن ندخل القرية،

فقال له الجزار: ما لي عملٌ صالح أدعو الله به!

فقال له النبي: أنا أدعو، وأنت أمِّنْ،

فدعا النبيُّ، وأمّنَ الجزار، فأظلتهما سحابةٌ حتى دخلا القرية،

فلما افترقا، تبعث الغمامةُ الجزارَ وتركت النبيَّ!

فقال له: تبعتكَ الغمامة، وتركتني،

ومع هذا تدَّعي أنه ليس لك عمل صالح، واللهِ لتخبرني بأمرك،

فقصَّ الجزار عليه ما كان بينه وبين الجارية،

فقال له: هذه هي، التائبُ إلى اللهِ بمكان عنده ليس لأحدٍ من الناس!

لعلَّ كسر قلبك في ذَنْبٍ أنتَ مقيمٌ عليه،

تواقعه في لحظة غفلة،

تغلبك نفسك، ويُزينه الشيطانُ لك، فتفعله،

ثم إذا انقضى شعرتَ بالنَّدم والتقصير،

ووجدتَ في صدرِكَ ضيقاً بسببِ ما كان منك،

وفي قلبكَ حياء من الله فإنك لا تُحبُّ أن تعصيه،

ولكنكَ لا تعرفُ كيف تضعفُ أمامه،

رغم أنكَ كلَّ مرَّةٍ تتوبُ، وتعاهدُ اللهَ تعالى أنْ لا ترجع،

ولكنك وللأسفِ سُرعان ما ترجعُ،

هكذا أنتَ بين ذنبٍ وتوبة، وتوبةٍ وذنب!

ولعلَّكَ الآن تسألُ نفسكَ فتقول: كيف عرفتَ هذا عنِّي،

أتجسستَ عليّ، أم فُتحتْ لكَ حُجب الغيب؟!

فأقول لكَ هوِّنْ عليك، ما تجسستُ،

وما كان اللهُ ليكشفَ سوأة ذنب المؤمن للمؤمن،

إنه سبحانه حييٌّ ستير على عبده الذي يواقع الذنب وهو خَجِل،

كل ما في الأمر أني مثلك تماماً،

أُصارعُ نفسي، فتغلبني مرَّةً، وأغلبها مرَّةً،

أنا مثلكَ على ذنبٍ وخجلٍ، وشعورٍ بالتقصير والنَّدم،

فلستُ ألبسُ عباءة المعصومين وأتفاخر،

أنا أُعزيكَ وأُعزيني، وأُخاطبكَ وأُخاطبني،

ثم تعالَ الآن أربتُ على قلبكَ قليلاً،

تعالَ أُعانقُكَ بحديث روحٍ لروحٍ، وقلبٍ لقلبٍ،

هذا ليس حالي وحالُكَ فقط،

هذا حال كل مؤمن منذ نزول آدم عليه السَّلام إلى الأرض،

وهكذا سيبقى حال كل مؤمن حتى قيام السَّاعة،

فسبحان من عصمَ الأنبياء، وسترَ على المؤمنين،

عندما علِمَ انكسار قلوبهم رغم الذنوب،

وحبهم له سبحانه رغم عصيانهم!

يقولُ النبيُّ ﷺ يواسيني ويواسيك:

ما من عبدٍ إلا وله ذنب، يعتاده الفينة بعد الفينة،

أو ذنب هو مقيمٌ عليه لا يُفارقه حتى يُفارق الدنيا،

وإنَّ المؤمن خُلق مُفتَّناً، توَّاباً، نسَّاءً، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَا!

ما أحلاه من حديث، وما أعذبها من طبطبة،

ما من عبدٍ إلا وله ذنب،

وهذا من باب النّقص الذي يعترينا نحن البشر جميعاً،

يعتاده الفينة بعد الفينة،

أي يُقلع عن الذنب، ثم يُعاوده، فيقع فيه حيناً بعد آخر،

ويفعله على سبيل العادة المتقطعة،

أو ذنب هو مقيم عليه لا يُفارقه حتى يُفارق الدنيا،

فهو دائم الوقوع فيه حتى يأتيه الموت،

في حرب ضروس مع نفسه وشيطانه،

ولكن الحرب سِجال، نصرٌ مرةً، وهزيمة مرَّةً،

إنَّ المؤمن خُلقَ مُفتَّناً،

أي يمتحنه الله بالبلاء، والذنوب، والفتن،

توَّاباً، وهي صيغة مبالغة، بمعنى كثير التوبة،

ولا يكون كثير التوبة إلا من كان كثير الذَّنب!

نسِياً، أي أنه يُعاهد ثم ينسى،

يشتدُّ ثم يضعف، يُقرر أنْ لا يفعل ثم يفعل!

ولكنه مع ذلك «إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ»،

وهنا بيث القصيد، أنه يستحي ولا يتجبر، ينصاعُ للحق

ولا يتكبر،

يخجل من هذه المعصية ولا يُجاهر بها!

لستُ أُشجعكَ على المعصية، بقولي هذا حال كل مؤمن،

هذه قول نبيِّكَ من قبل،

وإنما أقولُ لكَ استمرَّ في حربكَ مع الشيطان،

هزيمة اليوم، انتقمْ منها بنصر الغد،

وذنب اليوم سارع بالتوبة منه،

وإذا لم تستطِعْ أن تتخلص من معصية، زاحمها بالطاعات،

ولكن إياكَ أن يُعظِّم الشيطانُ ذنبْكَ في عينك،

إلى درجةٍ ترى معها رحمة الله سبحانه قليلة،

لو أذنبتَ ألف مرّةٍ، تُبْ ألف مرّةٍ،

إنَّ الله تعالى ما سمّى نفسه الغفار، إلا رحمةً بالمذنبين أمثالي وأمثالك،

وإلى أن نلتقي في الجنة بإذن الله،

نُعزّي بعضنا، ونهوّن على بعضنا الطريق!

أهزِّبْ لقد اكتشفوا أمرنا،

هذا ما أرسله الكاتب مارك توين،

لعدد من الشخصيات المرموقة في أمريكا على سبيل الدعابة،

وفي صباح اليوم التالي،

كانوا كلهم قد غادروا أمريكا!

والشيء بالشيءِ يُذكر،

أكلث عنزة بعض كتب الأديب أحمد بهجة،

فكتبَ مقالاً ساخراً يتهم فيه الماعز بمحاربة الفكر،

في اليوم التالي اشتكاه عشرة أشخاص،

كان كل واحدٍ منهم يعتقدُ أنه يقصده،

خذها عندكَ قاعدة:

السّيئون سيعتقدون دوماً أن رسائلك موجهة إليهم،

كل إنسان يقرأ نفسه في الكلام،

كل إنسان يتحسّس بطحةً على رأسه!

يروي «لافونتين» في حكاياته التي استقاها عن الإغريق

أنَّ غراباً حطَّ على غصنِ سنديانة، وكانَ يحملُ في منقاره قطعةً من الجُبن!

تنشَّقَ الثعلبُ رائحةَ الجُبنِ فلم يقوَ على مُقاومتها، فقالَ للغُراب:

يا أميرَ الغِربان، في هذه الأصقاع لم نرَ أبداً وجهاً أجمل من وجهك،

فإن كان صوتك في التغريدِ يُشبهُ حُسن وجهك،

لكانَ يجبُ أن تكونَ ملكَ الغابة، أسمِعني تغريدك!

وفتحَ الغرابُ منقارَه ليُغرِّد، فسقطتْ منه قطعةُ الجُبن!

التقطَها الثعلبُ على الفورِ وأكلها، ثم قالَ للغُراب:

أيُّها الغراب، إن المُتَمَلِّقين يعيشون على الذين يبتلعون مديحهم،

وقطعةُ الجُبنِ ليست ثمناً باهظاً لقاء نصيحة قيمة كهذه!

على ما يبدو أن التملُّق قديم على ظهرِ هذا الكوكب،

ويبدو أنَّ الإنسان هو الإنسان في كلِّ عصر، نحن نُسَخٌ تتكررُ بأسماءٍ أُخرى!

والتملُّقُ لم يخلُ منه زمان، والمُتمَلِّقون سيصمدون حتى ينفخ إسرافيلُ في الصور!

مدحَ شاعرٌ أحدَ الأمراءِ فلم يُعطه شيئاً، فقالَ الشاعر:

إن لم يكُن منكم فضل لذي أدبٍ

فأجرة الدربِ أو كفارة الكذبِ

ووقفَ شاعرٌ مُعوجُّ الفمِ أمامَ أحد الولاةِ ليمدحه،

ولكن الوالي لم يُعطهِ شيئاً، وإنما سأله: فما بال فمكَ معوجاً؟

فقالَ له: من كثرةِ الثناءِ على الناسِ بالباطل!

وحدثَ زلزالٌ في مصر في عهدِ المُعِزِّ الفاطمي، فقالَ الناس: هذا غضبٌ من الله!

ولكن شاعرِ المُعِزِّ قال له:

ما زُلزِلت مصرُ من كيدٍ ألمَّ بها

لكنها رقَصَت من عدلكم طرباً

قالت العربُ قديماً: من مدحكَ بما ليسَ فيكَ فقد ذمَّكَ!

المُتمَلِّقُ إنما يذُمكَ على هيئةِ مديح،

وإنه متى أخذَ حاجته منكَ ابتعدَ عنكَ وذهبَ لغيرك،

ولا تنسَ أبداً أنَّ من مدحكَ مرةً بما ليس فيك، فسيذمُك يوماً بما ليسَ فيك أيضاً!

هي التي من أجلها تُشرق الشمس،

هذه أول جملة غزل موثقة في التاريخ البشري،

قالها الملك «رمسيس الثاني» عن زوجته «نفرتاري»،

ولا زالت محفورة في معبد أبي سمبل،

وبعدما قرأ علماء الآثار سيرة حياته،

التي وُجدت في قبره مكتوبة على أوراق البردي،

اكتشفوا أنه كان متزوجاً عليها أربعاً وخمسين امرأة!

يبدو أنَّ بعض الأشياء لا تتغير في هذا الكوكب،

بعض الحُب مجرّد كلام جميل ليس إلا!

في «بهجة المجالس» للفقيه المالكي «ابن عبد البر»،

أن عُيينة بن أبي سُفيان قال: زيَّنني أبي، وأرسلَني إلى عمي عُتبة أخطبُ ابنته.

فأتيتُه، فأقعدني في حِجره، وقال:

مرحباً بأقرب قريبٍ خطبَ، وأحب حبيبٍ وردَ،

لا أستطيعُ له رداً، ولا أجدُ من نفعه بُداً،

قد زوجتكَ إياها، وأنتَ أعزّ عليّ منها، وهي أحظى بقلبي منكَ،

فأكرِمها يعذبُ على لساني ذكركَ، ولا تُهِنها فيصغرُ عندي قدركَ،

وقد قرَّبتُكَ مع قرابتك، فلا تُباعد قلبي عن صِلَتِكَ!

واللهِ لو تعلمون مقام البنتِ في قلبِ أبيها ما أُهينت امرأة في بيت زوجها،

ولا نامت ليلةً دامعة العين، ولا مكسورة الخاطر.

فالبنتُ قطعةُ القلبِ إن لم تَكُنْ كله،

الغَرسُ الرقيقُ الذي سُقيَ بماءِ القلب،

والضلعُ الضعيفُ الذي حُرِسَ بأهدابِ العين،

ولولا أنها سُنة الحياة، والفطرة التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها،

ما فرَّطَ أبٌ بابنته لزوجٍ ولو كانَ أكرم الناس!

فإنَّ فراقها غُربة، وبُعدها وعثاء، وخُلو البيتِ منها مُوحش، ولكنها الحياة،

وبهذا تستقيم، وبعضُ الفراق لا بُد منه،

ولولا مُغادرة السهم قوسه لم يُصِب!

فترفَّقوا يرحمُكُم الله، فما هُنَّ إلا كالأسيراتِ فقيِّدوهُنَّ بالحُب،

وكبِّلوهُنَّ بالمعروف، وضيِّقوا عليهنَّ بالعِناق،

تتسعُ لكم ولهنَّ الحياة، فالأحضانُ أوسعُ الأماكنِ الضيقةِ على هذه الأرض!

وأنتم معشر الآباء لا يُفسد عليكم الواقع فطرتكم،

ولا تخُونوا عهد الحُب الذي في قلوبكم لعاداتِ المُجتمعِ البالية،

وتقاليده التي ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان!

البناتُ لسنَ سلعاً للبيع يُقدَّمنَ إلى من يدفع مهراً أكثر!

البناتُ أماناتُ، فأدُّوا الأماناتِ إلى أهلها،

إلى من ارتضيتَ دينه وخلقه، ورأيتَ أنه قادر على صونها وإسعادها،

إلى من أخذها من أهلها ليكون أهلها، وإلا فاتركها عندكَ أيسرُ لكَ ولها!

فإنكَ مسؤولٌ عما فعلتَ بها، وعن المَوْرِدِ الذي أوردتها إياه،

وعن الرجلِ الذي جعلتها عنده!

بالإضافة إلى كونه أشهر فيزيائي في العالم،

كان «إسحاق نيوتن» عضواً في البرلمان الإنكليزي أيضاً،

ولكنه طوال فترته النيابيّة،

لم يُدلِ بأي تصريحٍ داخل البرلمان،

ولم يسمع أحدٌ صوته يتكلم، إلا في مرّةٍ واحدة يتيمة،

حيث قال لزميل له في البرلمان:

أنتَ، أغلِق النافذة لو سمحت!

كان «نيوتن» يملك آراءً حول ما يدور نقاشه لا شك،

الرجل الذي غاص في القوانين الحاكمة لهذا الكوكب،

لم يكن يصعب عليه أن يغوص في قوانين إنكلترا،

ولكنه كان يسكت لأنه كان يعرف،

أن إنكلترا لا تُدار من تحت قُبة البرلمان في ذلك الوقت،

فلا تُتلِف أعصابكَ في حديث لن يُغير شيئاً،

الصمت أحياناً أبلغ خطاب!

83

روى «ابن القيم» في «مدارج السالكين»،

أنه رأى في بعض الطُرق باباً قد فُتح،

وخرج منه صبيٌ يستغيث ويبكي،

وأمه خلفه تطرده، حتى إذا خرجَ، أقفلت الباب في وجهه ودخلت!

فذهبَ الصبيُ غير بعيد، ثم وقف مفكراً،

فلم يجد له مأوى غير البيت الذي طُرد منه،

فرجع مكسور الخاطر حزَيناً، فوجد الباب مغلقاً،

فجلس عند العتبة حتى غلبه النوم!

فخرجتْ أمه، ولما رأته على تلك الحال، لم تملك قلبها عنه، فارتمتْ عليه،

وجعلتْ تضمه وتُقبله وتبكي، وتقول له:

يا بُنيّ أين تذهب عني، ومن يؤويك سِواي،

ألم أقل لكَ لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتكَ لي على خلاف ما جُبِلْتُ عليه من الرحمة بكَ،

والشفقة عليكَ، وإرادتي لكَ الخير؟

ثم أخذته ودخلتْ!

وللهِ المثل الأعلى، والصفات المُثلى، وما نحن معه إلا كهذا الطفل مع أمه،

ليس له إلا بابها، فإن أُغلقت دونه ضاقت عليه الأرض بما رحُبَت،

ولم تعرف قدماه وُجهة أُخرى،

وأنها ما ضيَّقت عليه قليلاً إلا بما كسبَ وصنعَ،

فلما عاد آوته وضمته وقرَّبته نجياً!

كتبَ ربنا على نفسه الرحمة،

فسبحان مِن لا يلزمه إلا ما كتبه جلِ في علاه على نفسه،

وإنه يرحمُ بالمصيبة ليقيكَ ما هو أكبر منها،

ألم ترَ أن السفينة لولا الثقب الذي أحدثه الخضر فيها

لسُلِبَت مِن أصحابها وهي مصدر رزقهم؟!

وأنه سبحانه يُكدّرُ عليكَ الدنيا ليصفّي لكَ الآخرة،

ألم ترَ أنه لولا قتلُ الغلام لما بقيَ لأبويه دين ولا عقيدة،

وكل مصيبة في غير دينك أمرها يسير؟!

وأنه سبحانه يرحمُ بالمرض، فيكفِّر به السيئات،

ويكسر به نفساً قد أعجبتها قوتها فاجترأت عليه سبحانه،

فإذا نزل بها المرض استكانت وضعُفت ورجعت!

وأنه سبحانه لا يُغلق بابه، متى عاد عبده إليه وجد الباب مفتوحاً على مصراعيه،

يمدُّ يده ليلاً ليأتيه مسيء النهار، ويمدُّ يده نهاراً ليأتيه مُسيء الليل!

ما أغناه عنّا ولكنه لا يزهدُ بنا، وما أفقرنا إليه ولكننا نبتعد!

ما أقواه بدوننا ولكنه يتوددنا بالنعم، وما أضعفنا بدونه ولكننا نتبغض إليه بالمعاصي!

ما أقدره علينا ولكنه يحلم علينا، وما أعجزنا أمامه ولكننا نجترئ عليه!

فسبحان من يعاملنا بما هو أهله لا بما نحن أهله!

كانت الممثلة الشهيرة «صوفيا لورين»،

صديقةً للمخرج العالمي «فيتوريو دي سيكا»،

فكلاهما من أبناء مدينة نابولي الإيطالية،

وكلاهما جاء من أسرة شديدة الفقر،

وعندما سُرقت مجوهرات صوفيا أثناء وجودها في لندن،

بكت كثيراً لفقد جنى العمر،

عندها قال لها فيتوريو: وفّرِي دموعكِ يا صوفيا،

كلانا من أبناء نابولي الفقراء،

وقد خرجنا من تحت الرماد، وصنعنا أنفسنا،

والمال يأتي ويذهب فلا تبكي أرجوكِ،

انفجرت صوفيا في وجهه صارخة وقالت له:

أنت لا تفهم شيئاً، كانت هذه المجوهرات جزءاً مني،

عندها قال لها مقولته الشهيرة التي صارت حكمةً:

لا تبكي أبداً على شيءٍ لا يمكنه البكاء عليكِ!

وأنتِ عليكِ أن تفهمي أن الخسارة جزء من الحياة،

ولكن كل ما يمكن تعويضه لا يستحق الحزن طويلاً،

وأحياناً من رحمة الله بنا أن خسائرنا تحدث،

ونحن ما زلنا نقفُ على أقدامنا!

كان يحيى بن خالد البرمكي وزيراً لهارون الرَّشيد،

وكان يُعطي سفيان بن عُيينة، كل شهرٍ ألف درهم،

كي لا يشغله فقره عن نشر السُّنة والفقه بين الناس،

وكان سفيان يدعو ليحيى في سجوده ويقول:

اللهمَّ إن يحيى كفاني أمرَ دُنياي، فاكْفِه أمرَ آخرته!

فلما ماتَ يحيى رآه بعض أصحابه في المنام،

فقال له: ما فعلَ اللهُ بكَ؟

فقال: غفرَ لي بدعاء سُفيان!

وأنت، لربما كانت نجاتُك بدُعاءِ أيضاً،

بخاطرٍ تجبره، أو دمعة تمسحها،

أو همٍ تزيله، أو كُربة تُفرِّجها،

لعل الجنَّة تكون بعلبة دواءٍ تشتريها كل شهرٍ لمريض،

ومبلغٍ من المال تخصصه لأيتام،

لا يُستعطف اللهُ بشيءٍ أكثر من جبر خواطر الناس!

روى «الإمامُ الذهبيُّ» في كتابه «الكبائر»،

قال: بنى ملكٌ جبّار قصراً في أرضه،

فجاءت امرأةٌ عجوز مؤمنة وبنت بالقرب منه، كوخاً تعبدُ الله فيه!

فركبَ الجبّارُ يوماً فرسه يطوف أرجاء قصره،

فرأى الكوخ، فقال: ما هذا؟

فقيل له: امرأة عجوز تسكنه،

فأمرَ به فهُدِمَ، وسُوِّيَ بالأرض!

ولم تكن المرأة حاضرة، فجاءت فرأته قد هُدِمَ،

فقالت: من هدمَ هذا؟

فقيل لها: إن الملكَ ركبَ، فرآه، فأمرَ بهدمه!

فرفعت يديها إلى السماء وقالت:

يا رب، أنا لم أكن، فأنتَ أين كنتَ؟!

فأمرَ اللهُ جبريلَ أن يقلبَ القصر على من فيه، فقلبه، وهلكَ كل من فيه!

الظُّلمُ عاقبته وخيمة،

فإياكَ أن تظلمَ أولئك المساكين الذين ليس لهم إلا الله،

فربما نمتَ أنت مغتراً بقوتكَ، فرحاً بنصركَ،

فقامَ هو من الليل موجوعاً، يتجرّعُ مرارةَ ظُلمك،

فتوضأ، وصلى ركعتين، قال في سجودهما:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾.

دعوة نوحٍ عليه السلام التي أغرقَ الأرضَ لأجلها!

ومن أجمل ما قرأتُ لابن عثيمين قوله:

إنَّ اللهَ يستجيبُ دعاءَ الكافر المظلوم على المؤمن الظالم،

لا حُبّاً للكافر، ولا بُغضاً للمؤمن،

ولكن حُبّاً للعدل، وبُغضاً للظلم،

فإذا كان هذا حال الله مع المظلوم الكافر،

فترى كيف حاله سبحانه مع المظلوم المؤمن؟!

حدَّثني والد زوجتي رحمه الله قِصةً كان شاهداً عِليها،

كان لأحدِ الأثرياءِ والمتنفذين محلٌ تجاري،

بالقُرب منه بيتٌ صغير لأرملةٍ مسكينة،

فأراد أن يشتري البيت منها بثمن بخسٍ ليوسع محلَّه،

فأبتْ أن تبيعه إياه، وأين تذهبُ بأولادها؟

فجعلَ يختلقُ عليها قصصاً، ويتهمها في عِرضها،

فدخلت يوماً محلَّه التجاريّ، وقالت له:

ألم تجد سبيلاً لأخذِ البيت مني غير أن تتهمني في

عِرضي؟!

إلهي إنْ كان كاذباً مُفترياً، فأرسِلْ له قذيفة،

لا تُبقي منه أكثر من كيلو لحم!

ودارت الأيام، واستجيبث الدعوة،

وأقسم لي عمي أنه كان من بين الذين جمعوا أشلاءه،

لم يبقَ منه أكثر من كيلو لحم ليدفنوه!

فسبحان نصير المظلومين المستضعفين،

فإن ضاقث بكَ الدنيا من ظلم العباد،

وإن كان كسَرُ قلبكَ تجبّرِ الظالمين، واعتداءِ المتنفذين،

فارفع يديكَ إلى السماء، واستقوِ بمولاكَ،

ثم انتظر دورة الأيام، فإنه سيشفي قلبكَ!

قرأتُ حكايةً في أكثرِ من كتابٍ من كتب التراث،

تقول الحكاية:

كان لأحدِ الولاة الظالمين مساعدٌ هو في الظلم مثله،

وفي يومٍ من الأيامِ بينما هو يسيرُ على شاطئ النهرِ،

رأى صياداً فقيراً قد قام باصطيادِ سمكةٍ كبيرة،

فنظر الظالمُ إلى السَّمكةِ وقد أعجبته،

فذهبَ إلى الصيادِ وقال له بأسلوب حاد:

أعطني هذه السمكة يا هذا،

فردّ عليه الصياد قائلا: هذا قوت أبنائي!

فقام الرجل بضربه، وأخذها منه بالقوة، ومضى في طريقة،

وبينما هو يمشى إلى منزله عضّت السمكةُ على إبهامه،

وتسببت له بألم شديد جداً،

حتى أنه لم يستطعْ ليلتها أن ينامَ من شدّةِ الوجع،

وفى الصباح ذهبَ الرجلُ إلى الطبيبِ يشكو إليه حاله،

فقال له الطبيبُ: يجب أن يُقطعَ إبهامُكَ فوراً!

وإذا انتظرتَ أكثر، من الممكن أن أضطر إلى قطعِ ذراعكَ بالكامل!

ذهبَ الرَّجلُ إلى منزله محتاراً في أمره لا يدري ماذا يقرر،

وبمرور الساعات بدأت يده بكاملها تؤلمه ألماً شديداً،

ثم انتشر الألم في السَّاعدِ فذهبَ الرجلُ يستغيثُ بالطبيب،

فنصحه الطبيبُ بقطع يده إلى المرفق،

وفعلاً قرر الرجل هذه المرة أن يستمعَ لنصح الطبيب،

وقُطعت يده إلى المرفق من شدة الألم،

ولكن الألم لم يتوقف قط، وانتشر إلى العضد،

وأصبح أقوى وأشد مما مضى،

فقال له الطبيب: علينا أن نقطع يدك من كتفك

حتى لا ينتشر الورم في كامل جسدك

وهكذا كان ...

وعندما كان الناس يسألونه عن سبب قطع يده،

كان يقول: إنه صاحب السمكة!

وفى يوم ذكرَ هذا الرجل قصته لأحد الشيوخ،

فقال له الشيخ: لو كنتَ ذهبتَ من البداية إلى صاحب السمكة

واستحللت منه لما قطعت يدك،

ونصحه بالذهاب إليه وطلب رضاه ومسامحته وعفوه،

خرج الرجل يبحث عن صاحب السمكة في المدينة حتى وجده،

فوقع على قدميه يقبلهما ويبكي بكاءً شديداً،

ويستحلفه بالله أن يعفو عنه ويسامحه،

فتعجب من فعله، وسأله: من أنت؟

فقال له: أنا الذي أخذت منك سمكتك بالقوة!

وحكى له قصته،

فقال له صاحب السمكة أنه قد سامحه لما رأى ما وصل إليه من بلاء،

فسأله الرجل إذا كان قد دعا عليه يوم أخذها منه

بالقوة،

فقال الصياد: نعم، قلت يومها:

اللهم إنكَ أريتني قوة هذا الظالم عليّ، فأرِني قوّتكَ عليه!

كانت «ألكسندرا رومانوفا» زوجة القيصر،

وكانت تهوى الكتابة، وتركت وراءها مُذكّراتٍ،

وفي مذكراتها كتبت:

يجب أن يكون المنزل، مهما كان متواضعاً وصغيراً،

وبصرف النظر عن مكانه،

أغلى مكانٍ على وجه الأرض لكل أفراد الأسرة،

يجب أن يمتلئ بالحُب والسعادة،

وليس بؤرة للمشكلات،

يجب أن يكون ملجأً للروح!

هذه سيدة روسيا، ساكنة القصور، تُحدّثنا عن دفء المنزل!

كانت تعرف أن البيوت ليس بحجمها،

وإنما بالمشاعر والود الذي فيها!

وأن المنزل إذا ضاقَ فلن يُفيد بعد ذلك اتساع الكون،

ومتى كان آمناً لا يهم كيف هو شكل العالم في الخارج،

البيوت بحاجة لأن تمتلئ بالحُب أكثر من الأثاث!

هناك خُرافة إغريقية قديمة تقول:

إنَّ الصُبار كان أول الأمر ورداً،

ولكنه تعرّض للقطفِ والإيذاء مراتٍ عديدة،

فقرر أن يحمي نفسه من هذا الغدر المتكرر،

فغلّفَ جسده بكل هذا الشوك!

يُخيِّلُ إليَّ أنَّ بعض الناس،

يُشبهون الصُبار في هذه الخرافة!

إن الخذلان المتكرر، والاستغفال مرّةٍ بعد مرّةٍ يُغيرنا،

ويكفي أن نُلاحظ أن الزجاج،

لا يكون جارحاً إلا عندما يُكسر!

يروي «ليو تولستوي» في كتابهِ «خُرافات»

أنه كان هناك حصانان يحملان حمولتين،

وكانَ الحصانُ الأمامي نشيطاً، أما الحصانُ الخلفي فكانَ كسولاً.

فبدأ الرجالُ يُكدّسون حمولةَ الحصانِ الخلفي على ظهرِ الحصانِ الأمامي،

وعندما نقلوها كلها، شعرَ الحصان الخلفي بالراحة،

وقالَ للحصان الأمامي: اِكدخ واِعرَق وحدك،

وكلما زادث حمولاتك زادث مُعاناتك، أما أنا فمُستريح!

وعندما وصلَ المسافرون إلى المدينة،

قالَ صاحبُ الحصانين: لماذا أُطعمُ حصانين، بينما أنقلُ حمولتي على ظهرِ حصانٍ واحد؟

من الأفضل أن أُعطيَ الحصان الناقل للحمل كل الطعام الذي يُريده،

وأن أذبحَ الحصان الثاني الذي أصبحَ عالةً عليّ،

على الأقل سأستفيدُ من لحمِهِ وجلده!

وهكذا كان!

يكتسبُ المرءُ أهميته في الحياةِ بقدرِ ما يعمل،

ولا أعني بالعمل هو فقط ما يدرُّ دخلاً،

وإنما أعني بما يكونُ له أثر وقيمة أيضاً!

فربّةُ المنزلِ مثلاً هي عاملة وإن لم تتقاضَ أجراً،

بل هي تقومُ بأهمّ وأخطرِ الأعمال، وأشدها قداسة، ألا وهي صناعة الأجيال،

على أن يُعلم أن إنجابَ الأولادِ شيءٌ وصناعة الأجيالِ شيء آخر،

الأولى وظيفةٌ بيولوجيةٌ نشتركُ فيها مع الكائناتِ الأخرى،

أما صناعةُ الأجيالِ وتحويل هذه المواليد إلى بشر حقيقيين عن طريقِ التربيةِ فهي التي تجعلُ من الناسِ ناساً!

إن قيمة الإنسان الحقيقية هي بمقدارِ ما يحملُ من مسؤوليةِ على كاهله،

لا بمقدارِ ما يُلقي الأحمال عن كتفيه!

كُلُّ الذين غيّروا مجرى التاريخِ حملوا مسؤولياتهم باقتدارٍ وشجاعة،

أما الذين عاشوا لأنفسهم، فعاشوا صغاراً وماتوا صغاراً!

ليس المطلوب طبعاً أن نغيّرَ جميعنا مجرى التاريخ،

فأنا شخصياً لا أستطيع أن أغيّرَ جغرافيا بيتي من الداخل،

لأن الزوج الذي يستطيعُ تغييرَ قناة التلفاز في بيته هو

بطل من زاويةٍ ما!

ما أعنيه بكلّ بساطةٍ أن يقومَ المرءُ بمهمته مهما كانت بسيطة،

وبوظيفته مهما بدت مُتواضعة،

وبحراسةِ ثغره مهما بدا يسيراً، على أكمل وجه!

الأبُ البسيطُ الذي يُعيلُ أُسرة، ويُعلّم أفرادها هو بطل!

وربةُ المنزلِ التي تُديره باقتدارٍ هي بطلةٌ أيضاً!

الموظفُ الأمينُ بطل، وكنّاسُ الطريقِ المُخلص بطل!

أنا لا أقول أن على الجميع أن تكون لهم بُطولات خارقة يجب أن يُدوّنها التاريخ،

كل ما أقوله أن نفعلَ الأشياء البسيطة بضميرٍ وإخلاص!

أقبلتْ فاطمة الزهراء رضي الله عنها،

إلى النبيّ ﷺ ومعها كسرة خبز،

فسألها: ما هذه الكسرة يا فاطمة؟

فقالتْ له: قُرصٌ خبزته فلم تطِبْ نفسي،

حتى أتيتُك بهذه الكسرة!

الحُب ليس نتيجة نهائية نتعامل معها،

بقدر ما هو بناء نبنيه حجراً حجراً كل يوم،

تصرفاتٍ صغيرة تُنبىء عما وراءها من لهفة،

كلمة حنونة، لمسة حانية، وردة،

تفقد في مرض، اهتمام دائم،

كلمة أحبك لا يكفي أن تُقال،

وإنما يجب أن تُترجم!

كانَ أحمد بن طولون يخرجُ مُتخفّياً أحياناً ويسمعُ قراءةَ الأئمةِ في المحاريب،

فدعا بعضَ عماله يوماً وقالَ له:

امضِ إلى المسجدِ الفُلاني، وأعطِ إمامه هذه الدنانير.

قالَ العاملُ: فمضيتُ، وجلستُ مع الإمام، وباسطتُهُ في الحديثِ

حتى شكا أنَّ زوجته ضربَهَا الطلقُ ولم يكُنْ معه ما يُنفقُ على أمورِ ولادتِها،

وأنّه صلّى فأخطأ كثيراً في القراءة.

فأعطيْتهُ المال وعُدتُ.

ولمّا أخبَرْتُ ابن طولون بالأمر، سألتُهُ:

يا أيُّها الأمير، من أين علمتَ بأمره؟

فقال: ما كانَ يُخطِئُ من قبل في القراءة، فلمّا أخطأ هذه المرّة

عَلِمتُ شُغل قلبه بشيءٍ من الدُنيا، فأردتُ أن أكفيه!

قاسيةٌ هذه الدُنيا ومريرة، متقلّبةٌ لا تلبثُ على حالٍ،

تجعلُ الحليمَ أحياناً حيراناً، فترفّقوا!

عندما سألت عائشةُ النبيَّ ﷺ عن أشد وأوجع يومٍ مرَّ به،

كانت تعتقدُ أنه سيُحدِّثُها عن يومِ أُحُد،

حيثُ فقدَ عمهُ وثلةً من أصحابه، وشُجَّ رأسه، وكُسِرت مُقدمة أسنانه،

ولكنَّه حدَّثها عن يومِ الطائف، يوم رُجِمَ بالحجارة، فمشى هائماً على وجهه لا يدري أين يسير،

ولم يستَفِق إلا وهُوَ في قرنِ الثّعالب!

قاسٍ هو الخذلان، إنه يجرحُ الأنبياءَ عميقاً، فكيفَ بالناس!

رُبما مرَّ بكَ مهموم وصاحب دين، ولم يُسَلِّمْ عليكَ،

لأنه بالأساسِ لم يَرَكَ، لقد أعماه همّه، فترفقوا!

وربما قصدتَ إنساناً في حاجة، فوجدتَهُ على غيرِ ما تجده عادةً،

فالتمس له العُذر، فلعلَّ ما نزلَ به أشد ممّا نزلَ بكَ،

يحدثُ أن تشغلَنا جروحنا عن مُواساةِ الناس!

كونوا نُبلاء لمّاحين، اقرؤوا الحاجات في وجوهِ أصحابِها واقضوها لهم،

وتنبَّهوا للحُزنِ في الصوتِ فاربِتوا على كتفِ صاحبه،

بعض الناس يعزُّ عليهم أن يقصدوا الناس في حوائجهم،

فاكفوهم مؤونةَ السؤالِ بحُسنِ العطاء!

في كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي:

كان بعض الأغنياء كثيرَ الشُّكرِ،

فطال عليه الأمدُ وعصى ربَّه،

فما زالت نعمته، ولا تغيّرت حالته،

فقال: يا رب تبدّلت طاعتي، وما تغيّرت نعمتكَ،

فهتفَ به هاتفٌ: يا هذا،

لأيام الوصال عندنا حُرمة حفظناها وضيَّعتها،

تأملوها بعمق: لأيام الوصال حُرمة!

فإذا انتهت العلاقة، وزال الود، وخبا الحُبُّ،

فمسموحٌ أنْ لا نكون أحبة،

ولكن من العيب أن نكون أعداءً!

لا تُفشوا الأسرار، ولا تتبارزوا بنقاط الضعف،

احفظوا لأيام الوصال حرمتها!

إنّه عامُ الحُزن!

أبو طالب سدّه المنيعُ في وجه قريشٍ قد مات،

وخديجةُ، الزّوجةُ، والحبيبةُ، والصديقةُ قد ماتت أيضاً،

ما أقسى أن يخسرَ المرءُ جبهته الداخلية، وجبهته الخارجية،

يشعرُ وقتها أنه وحيد، ومكشوف تماماً!

ومكّة على حالها!

غارقة في عبادةِ الأصنام عن آخرها، ودار الندوة تفيضُ بالمكائد،

فقرر النبيُّ ﷺ أن يسيرَ إلى الطائف،

كان يُمني نفسه أنْ يجدَ هناك لِيناً لم يجده في مكة،

وقلوباً رحيمةً غير تلك القاسية التي وجدها عند قومه،

ولما وصلَ إلى هناك، عرضَ الإسلام على سيد الطائف ابن عبد ياليل،

ولكنّ الحقيرَ قال له مقالةً كلما قرأتُها في الكتب،

دمعت عيناي والله، وانفطرَ قلبي!

قال له: أما وجدَ الله غيركَ يرسله إليّ!

ثم أطلقَ خلفه سُفهاءَ القوم وغلمانهم،

فرشقوه بالحجارةِ حتى سال الدّمُ من القدمين الشريفين،

ثم دار الزمان دورته، سنةٌ تعقبُها سنة، وعامٌ يتلوه عام،

فُتحت مكّة، وارتفعَ أذانُ بلال فيها،

مُعلناً ملءَ الكونِ أنّ الله أكبر!

واستردّت هذه المدينة هويتها المفقودة،

عاصمةً للتوحيدِ والإيمانِ حتى قيام الساعة!

وها هو النبيُّ ﷺ في المدينة،

قد بسطَ سُلطان الإسلامِ في جزيرةِ العرب كلها،

فتسأله عائشةُ تقول:

يا رسول الله، هل أتى عليكَ يوم أشدّ من يوم أُحد؟!

كانت تعرفُ أنّ يوم أحدٍ كان عصيباً،

أستشهدَ في ذلك اليوم حمزة، قائدُ جنده المغوار، وذراعه العسكري،

ومع حمزةَ دفنَ سبعين من خيرة أصحابه،

وفي تلكَ الغزوة شجُّوا رأسه، وكسروا مقدمة أسنانه،

وأسالوا دمه الشريف على وجهه،

لهذا كانت عائشة تعتقدُ أنّ أُحداً كان أشدّ الأيام عليه،

ولكنه فاجأها بالحديث عن يومِ الطائف!

فقال: انطلقتُ وأنا مهموم على وجهي،

فلم أستفِقْ إلا وأنا في قرن الثعالب!

فرفعتُ رأسي فإذا بسحابة فيها جبريل،

فناداني، فقال: إنَّ اللهَ قد سمعَ قولَ قومكَ لكَ، وما ردّوا عليك،

وقد بعثَ إليكَ ملكَ الجبال، وقال: إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين!

فقلتُ: بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم،

من يعبدُ اللهَ وحده، ولا يُشركُ به شيئاً!

والآنَ أريدُكَ أن تعيرني قلبكَ،

وتتأمل معي قولَ النبيِّ ﷺ:

انطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفِقْ إلا وأنا في قرن الثعالب!

هو يعرفُ أنه نبيّ، وأنَّ دينه منتصرٌ لا محالة،

وأنَّ الله تعالى لن يقبضه إليه، إلا وقد جعله يقطف ثمار دعوته إذ لا نبيَّ بعده،

ولكنه، بأبي وأمي، نهاية المطاف إنسان،

ضاقت عليه الأرض حتى بدت كأنها خرم إبرة،

وهو جالس فيها وحده بلا نصير، بل وينكسر من الحزن والوجع،

فيمشي هائماً على وجهه لا يعرفُ أين تأخذه قدماه،

ثم يستفيق على صوت جبريل!

ولكَ أن تتخيلَ كيف يُراعي ربنا سبحانه، طبيعة نبيِّه البشرية، ونزعته الإنسانية،

فهو لم يعاتبه، ويقُلْ له:

كيف تحزنُ وأنا موجود،

وكيف تضيق عليكَ الأرضُ وأنا في السماء،

وكيف تهيمُ على وجهكَ وأنا هنا،

بلِ أرسلَ جبريلَ ليربتَ على قلبه،

ومع جبريل ملك الجبال رهنَ أمره،

إن كان يريدُ أن ينتصرَ للظلم الذي تعرَّضَ له!

نحن نضعفُ لا من قلة الإيمان، ولكن من قسوة الحياة،

لم يكن إيمان النبيِّ ﷺ يوم الطائف قليلاً،

ولكن طعم الظلم مُرًّا!

افهموا أنَّ الإنسان ينكسرُ أحياناً،

ويهيمُ على وجهه فتراه يمشي في دنيانا،

وهو في دنيا أخرى لا نعرفها نحن!

تمرُّ بالإنسان لحظات لا يطيقُ أن يقولَ فيها كلمة،

أو يسمعَ نصيحةً، أو يرى إنساناً!

احترموا أحزان بعضكم،

وقدّروا حاجة الإنسانِ في رغبته أن يكون وحده قليلاً،

ثم حين تهدأ الأمور قليلاً، امسحُوا على صدره، وواسوا قلبه،

حدثوه حديث القلب للقلب، والروح للروح،

دعكم من المنطق قليلاً،

النفسُ لحظة انكسارها تحتاج احتواءً لا درساً،

والروح لحظة خدشها تحتاج عناقاً لا موعظة!

عيشوا لحظات أحزانكم، لا ضيرَ في هذا،

ابكوا من الوجع، ولا تكتموا دموعكم،

الحزن الذي يبقى في القلب يفطره،

اعتزلوا قليلاً كي لا يرى أحدٌ انكساركم،

ناجوا ربكم في عزلتكم،

اسجدوا بين يديه، وحدثوه حديث العبد الآيس من الناس،

اشيروا بأصابعكم إلى قلوبكم،

قولوا له: يا اللهَ إن الجرحَ هنا، فداوِنا!

ثم امسحوا دموعكم، واخرجوا إلى الناس أقوياء،

كأنه ما مسّكم من سوءٍ، ولا أصابكم من جرح،

فإنّ نظرات الشفقة في عيون الناس جرح آخر،

وكان الله في عون كل شخصٍ ليس له كتفٌ يستندُ عليه!

في كتاب مكارم الأخلاق للخرائطي:

قال مسعرُ بن كِدام: كنتُ أمشي مع سفيان الثوريّ،

فسأله رجلٌ صدقةً،

فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى!

فقلتُ له: ما يُبكيك؟

فقال: وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ من أن يُؤمِّلَ فيك رجلٌ خيراً،

ثم لا يصيبه عندكَ؟

وأنتَ، ألا فاعلَمْ،

أن حوائج الناس مقضية بكَ أو بدونكَ،

ولكنَّ إنساناً سأل ربَّه خالياً حاجةً له،

فألقى اللهُ في روعه أن يقصدكَ،

تفضُّلاً منه سبحانه عليكَ أولاً، لا عليه،

فأنتَ المحتاج وإن بدا لكَ أنكَ المستكفي،

وأنتَ الفقيرُ وإن بدا لكَ أنكَ الغنيُّ،

فلا تردَّ عطايا اللهِ لكَ،

ولا تُخيِّبْ ظنَّ الناسِ فيك!

يروي «إيسوب»، في كتابه «خُرافات»

أنّ ثورين قررا أن يكون بينهما نِزال ومبارزة،

يَحظى فيها الثورُ الفائزُ على أجملِ بقرةٍ في القطيع،

وتكونُ له السيادة على الحقلِ بأكمله.

وقبلَ أن يبدأ النّزالُ قالت ضفدعة: يا لتعسنا نحن!

فقالت لها ضفدعة تقفُ بجوارها: وما شأننا نحن بهذا النِزال؟

فقالت لها: إذا انتهت المُبارزة سيُنفى الثورُ الخاسرُ من مرجِهِ الأخضر،

ويأتي إلينا ليأكل من القصبِ في المُستنقع،

ويدوس علينا بأظلافه، ويسحقنا ضفدعاً بعد ضفدع،

ولن يكونَ مهرُ البقرةِ العروس في النهاية إلا لحمنا ودمنا!

وتحققت نُبوءة الضفدعة، لقد انسحبَ الثورُ المهزومُ ليُخفي عارَ هزيمته،

إلى موطنِ الضفادعِ الآمنة، وراحَ يسحقُها في كلِّ ساعة!

المساكينُ دوماً يدفعون ثمنَ صراعِ الأقوياءِ الذي هو أساساً صراعٌ على النفوذ!

يُخيّلُ إليّ أن العقلَ البشري لا يستطيع أن يملك مدفعاً

دون أن يُفكرَ كيف يجعلُ مناطقَ سيطرته ونفوذه حيث تستطيعُ نيرانُ مدفعيته أن تصل!

ولكن لو أردنا أن نُخرِجَ مفهومَ أن البسطاء دوماً يدفعون الثمنَ

من عباءةِ السياسةِ والصراعاتِ، إلى عباءةِ الحياةِ العاديةِ لصحَّ ذلك قطعاً!

في الطلاقِ مثلاً الخاسر الأكبر هُم الأبناء،

وللأسف هُم الطرف الذي لم يخُض صراعَ شخصين راشدين،

ولكنهم أكثر الأطرافِ تضرُّراً،

رغم أنهم أشبه بجمهورِ كرةِ القدمِ الذي شاهدَ مباراةً بين فريقين

ثم كان عليه أن يتحملَ نتائجَ لعبٍ سيئ لم يشتركوا به!

في العام 2007 حصلت الروائية البريطانية «دوريس ليسينغ»،

على جائزة نوبل للأدب،

وكانت ترى أن الناس، ودور النشر بطبيعة الحال،

يُقدّسون الأسماء، أكثر من التفاتهم لمحتوى الكُتب!

ولإثبات وجهة نظرها هذه،

أرسلت لدار النشر التي تطبع فيها روايتين جديدتين،

تحت اسم مستعارٍ هو «جين سومرز»،

رفضت الدار نشر الروايتين لعدم جودتهما!

لاحقاً تم نشر الروايتين باسمها الحقيقي،

ولكنها أثبتت أن الناس يُقدّسون الأسماء فعلاً!

أعلمُ كم هو موجع أن تضع بلاغتكَ وروحكَ في كتابٍ،

ثم ترسله إلى دار نشر فيتم رفضه،

هذا لا يعني أنك كاتب فاشل،

كل ما في الأمر أن دور النشر تنظرُ في الربح أولاً،

لا في الموهبة!

وكتابك المرفوض هذا كانت ستتقاتل عليه الدور،

لو أعطيته لكاتب معروف لينشره باسمه،

فلا تدع أحداً يُقلل من موهبتك!

روى «الدينوريُّ» في كتابه «المجالسة وجواهر العلم»،

عن الحسن البصريّ أنه قال:

وقفتُ على تاجرِ ثيابٍ في مكة أشتري منه ثوباً،

فجعلَ يمدحُ ويحلفُ، ويروّجُ بضاعته بالأيمان المُغلّظة،

فتركته، وقلتُ: لا ينبغي الشراء من مثله،

فذهبتُ إلى غيره، واشتريتُ منه!

ثم حججتُ بعد ذلك بسنتين...

فوقفتُ عليه، فلم أسمعه يمدحُ ولا يحلف!

فقلتُ له: ألستَ الذي وقفتُ عليه منذ سنتين؟

قال: بلى.

قلتُ: فما غيّر حالكَ، فلا أراكَ تمدحُ ولا تحلف؟

فقال: كانتْ لي امرأةٌ إن جئتها بقليل احتقرته، وإن جئتها بكثيرٍ قللته!

فكنتُ أصنعُ ما تعلمُ لأرضيها،

ثم ماتت... فتزوجتُ امرأةً بعدها،

فإذا أردتُ أن أغدو إلى السوق،

أخذتْ بمجامع ثيابي، وقالت: اتقِ الله، ولا تُطعمنا إلا حلالاً،

إن جئتنا بقليلٍ كثّرناه،

وإن لم تأتنا بشيءٍ أعنّاكَ بمغزلنا!

الشّريك الصّالحُ من أهمّ أسباب الاستقامة بعد توفيقِ الله،

إنّ الزّوجة التي لا تقنعُ، ثُدني زوجها من النار،

إذ أنها ستدفعه إلى الحرام دفعاً، وحتى إن لم تأمره بذلك صراحةً،

ولكن كثرة تبرمها، وقلة رضاها،

ستجعله يبحث عن أساليب ملتوية في الرزق ليَأمنَ شرّها،

ولكم في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عبرة،

فعندما جاء لزيارة ابنه فلم يجده، ووجد زوجته،

سألها عن حالهم، وهي لا تعرفه،

فقالت: نحن في شرٍّ، نحن في ضيقٍ من الرزق،

فقال لها: إذا جاء زوجك، فأقرئيه السلام،

وقولي له: غيِّز عتبة داركَ!

فلما جاء إسماعيل عليه السّلام، وحدثته بشأن الزائر،

وأخبرته بما قال لها،

فقال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُطلقكِ، الحقي بأهلكِ!

ثم جاء إبراهيم عليه السّلام مرّةً أخرى،

ووجد زوجة ابنه الجديدة، فسألها عن حالهم،

فقالت: نحن بخير، نحن في سَعةٍ من الرزق،

فقال لها: إذا جاء زوجكِ، فأقرئيه السلام،

وقولي له: ثبّث عتبة دارك،

فلما جاء إسماعيل عليه السلام، حدثته بالخبر،

وأخبرته بما قال لها هذا الشيخ الزائر،

فقال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أحافظ عليكِ!

كان إبراهيم عليه السّلام يعلمُ أن الزوجة التي لا ترضى،

فإن الحياة ستكون معها جحيماً!

وما يُقال في حق الزوجة يُقال في حقِّ الزوج أيضاً،

ولكن كان التركيز على الزوجة في موضوع الرزق،

لأنّ الغالبَ في البيوتِ أن العملَ للزوج وحده،

ولكن بعيداً عن الرزق، فإن الزوج الصالح،

من أهم أسباب استقامة الزوجة بعد توفيق الله!

صحيح أنه ليس مبرراً أن يعلق أحدٌ صلاحه،

أو فساده على شريك حياته،

فآسيا زوجة فرعون إحدى أشهر المؤمنات في التاريخ،

كانت في بيت أشهر طاغيةٍ في التاريخ،

وامرأة لوطٍ عليه السلام كانت كافرة،

وكذلك كانت زوجة نوحٍ عليه السلام وهو شيخ المرسلين،

ولكن جميعنا نعلمُ أن البيت كالطائر،

وأن الزوج والزوجة هما جناحاه!

فإن حلّقا معاً كانت الحياة يسيرة،

وإن حلّقَ كل واحدٍ منهما في اتجاه،

استحالت الحياة صراعاً وجحيماً!

من هنا كان على الإنسان أن يتريث في الاختيار،

فلا يبحثُ الشاب عن المرأة الجميلة فقط،

وإنما ينظرُ إلى الدين والخُلقُ أولاً،

ويسألُ عن حال البيت، وبأيّ طريقةٍ يسير،

فإذا اجتمعَ الديّن مع الجَمال كانت الحياة جنّة،

وإلا فالجَمال مع الشّقاق والخلاف، لا يبقى جمالاً،

والأنوثة مع قلة الدّين سرعان ما تنطفئ،

ولا تبحثُ البنت عن الوسامة فقط،

ولا عن الشّهادة والراتب، وإن كانت هذه أمور مهمة،

وإنما عن الدّين والأخلاقِ أولاً،

وكيف يُعاملُ هذا الشاب أمه، وأخواته،

وكيف هو بين الناس، وكيف هي علاقته مع الله،

ثم إذا اجتَمعَ الدين والوسامة كان صيداً وفيراً،

لأنه لو لم يكن صاحبَ خُلق ودِين،

فإنها ستكره بعد ذلكَ أن تنظرَ في وجهه،

ولو كان له وسامة يوسف عليه السَّلام!

صحيح أن كل شيء بقدَرِ اللهِ،

وأنَّ الإنسان مهما اجتهدَ، فإنه لن يخرجَ عمّا كُتبَ له،

ولكننا لا نعرفُ أقدار الله إلا حين تقع،

أما قبلها فنحن نُفكِّر، ونسأل، ونستخير، ونجتهد،

ثم مرحباً بأقدار الله على أي هيئة كانتْ،

والإنسان أحياناً يدفعُ عمره كله بسبب اختيارٍ خاطئٍ،

تسرَّع فيه، دون أن يُمحّصَ كل جوانبه،

اختاروا «صح»، لتعيشوا «صح»،

ومن طرائف ما قرأتُ في هذا المجال،

روى البيهقيُّ في كتابه «مناقب الشافعيّ»،

أنَّ الإمام الشافعي قال:

سمعتُ بعض أصحابنا ممن أثقُ به،

قال: تزوجتُ لأصونَ ديني،

فذهبَ ديني، ودين أمي، ودين الجيران!

في السُّنن الكُبرى للبيهقي،

روى الحسنُ أنَّ رجلاً أتى أهل ماءٍ فاستسقاهم،

فلم يسقوه حتى مات!

فأغرمهم عمر بن الخطاب ديَّته!

وعمِلَ الفقهاء بهدي عمر بن الخطاب،

على أنَّ من ماتَ جوعاً بعلم جيرانه،

فديَّته على أهل الحيِّ!

فإذا ما علمتَ هذا، فاعلمْ أنه يترتب عليه عمل،

يأثمُ المرءُ إن كان قادراً على مسح دمعة ولا يمسحها،

وإن كان قادراً على جمع قلبين بالحلال ولا يجمعهما،

إنَّ الله يُعبدُ بقضاء حوائج الناس كما يُعبدُ بالصلاة والصيام!

قالَ «الذهبيّ» في ترجمته للإمامِ «علي بن أبي الطيِّب»:

أنه حُمِلَ إلى السُلطانِ «محمود بن سبكتكين» ليسمعَ وعظه،

فلمَّا دخلَ جلسَ بلا إذن، وأخذَ في روايةِ حديثٍ بلا أمر،

فغضبَ السُلطان، وأمرَ غُلاماً له فلكمَ الإمام لكمةً قوية!

فأخبرَهُ بعض الحاضرين منزلةِ الإمامِ في العِلمِ والفِقه.

فاعتذرَ إليه السُلطان، وأمرَ له بمالٍ، فلَمْ يقبلْهُ منه.

فقالَ له السُلطان: يا شيخ، إنَّ للسُلطانِ صولة، وهو مُحتاج إلى السياسة،

ورأيتُ أنَّكَ تعدَّيْتَ الواجب، فاجعلْني من حِلٍّ!

فقالَ له الإمام: اللهُ بيننا بالمِرصاد، وإنَّما أحضرتَني للوعظ،

وسماعِ أحاديثِ النبيِّ ﷺ، وللخشوع، لا لإقامةِ قوانينِ الرئاسة!

فخجلَ السُلطانُ من فِعلته، وقامَ وقبَّلَ رأسه، واعتذرَ إليه!

وقالَ «الذهبيّ» مُعَلِّقاً على القصة:

رُتبة «محمود بن سبكتكين» في الجهادِ رفيعة، ولهُ في الهندِ فُتوحات مليحة،

ولهُ هنّات وسقطات، هذه منها، وقد ندمَ واعتذرَ، فنعوذُ باللهِ من كُلِّ متكبّرٍ جبّار!

يحدثُ للإنسانِ أن يخونَهُ نُبله مرةً وما أجمل قول علي بن الجهم:

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها

كفى المرءَ نُبلاً أن تُعدَّ معايبه

يحدثُ أن يتصرَّفَ الإنسانُ مرةً على غيرِ ما هو عليه فعلاً،

فيقولُ كلمةً ما كانَ بالعادةِ يقولها، أو يتصرَّفَ تصرُّفاً لم يعهدْهُ هو من نفسه،

ومن العدلِ أن نُقِيلَ للكريمِ عثرته،

ومن أُصولِ الفِقهِ أنه إذا كثُرَ الماءُ لم يعُد يحتملُ الخبث!

على أنَّ النُبلاءَ يعتذرون، والخُبثاء يستكبرون!

حين غضبَ مُوسى عليه السلام، وألقى الألواح،

كانَ أول ما فعله حين ذهبت عنه سَوْرَةُ الغضبِ أنه أخذَ الألواح!

وحين وكزَ النبيُّ ﷺ سواد بن غزية، وهو يُسوِّي الصفوفَ للمعركة،

شكا إليه سواد أنَّه قد أوجعه،

فناولَهُ العود الذي كانَ في يده، وكشفَ عن بطنه، وقالَ له: استقدِ يا سواد!

مَن أخطأ فعادَ كانَ فيه شيء من آدم عليه السلام،

فعندما أخطأ عادَ واسترجع،

ومَن أصرَّ كانَ فيه شيء من إبليس،

فعندما أخطأ تولّى واستكبر!

تقولُ العربُ في أمثالها:

رُبَّ كلمةٍ تقولُ لصاحبها دَعني!

وأصلُ المثل أن ملكاً من ملوك العرب،

صعد صخرةً ومعه عدد من أتباعه،

فقال واحدٌ منهم: لو ذُبحَ إنسانٌ على الصَّخرة،

فمن أي جهةٍ سيسيلُ دمه؟!

فقال الملكُ: اذبحوه لننظر من أي جهة سيسيل دمه!

كثير من المآزق كان يمكن تلافيها،

لو ملكنا ألسنتنا!

كثير من الخواطر كانت لتبقى سليمة،

لو انتقينا مفرداتنا،

كثير من الأرحام ما كانت لتُقطع،

لو تذوقنا كلماتنا قبل نطقها،

كان عمر بن الخطاب يقول:

ليت لي عُنق الجَمل حتى أَزِن الكلمة قبل النطق بها!

في الرِّيفِ النمساويّ امرأةٌ طاعنةٌ في السّنّ تخبزُ على التنورا

ذكّرتني رائحة خبزها برائحة خبز جدّتي رحمها الله،

كنتُ وأنا صغير يطيبُ لي الجلوس قربها وهي تخبز على التَّنورِ أيضاً،

كنتُ أثيراً عندها، وكانت تعرفُ حُبّي للخبز الساخن الذي فارقَ التَّنور للتو،

لهذا كانت تعطيني الرَّغيف الأول، وتمسحُ على رأسي، وتقولُ لي: كُلْ يا حبيبي!

كانت صديقتي، تروي لي الحكايات في الليل،

أما في النهار فكان حضنها أشبه بلجوءٍ سياسي!

كنتُ وأنا صغير مشاغباً جداً، وإذا ضاقت بي أمي ذرعاً،

وأرادتْ أن تضربني، هربتُ إلى جدتي،

ودفنتُ رأسي في حضنها، فتضعُ ذراعيها حولي،

وتقول: خلص ما عاد يعيدها!

كانت دوماً تحميني رغم أني كنتُ دوماً أعيدها!

يختلفُ النَّاسُ أي رائحةٍ هي الأجمل،

رائحةُ القهوةِ، أم الكُتبِ، أم رائحةُ الترابِ بعد المطر،

ولكنّهم يتفقون أن أقوى الذكرياتِ هي تلك التي ترتبطُ

بالرّوائحِ.

نحن نحفظُ روائحَ أحبابنا غيباً، ومن قبلُ قد وجدَ يعقوبُ رائحةَ يوسف رغم المسافات!

العُطور ليست مجرّد «بخّةٍ» على الثياب، إنها ثقافة وهوية،

هناك عطرٌ واثقٌ جداً، وعطرٌ خجولٌ، وعطرٌ صارخٌ،

وعطرٌ وديعٌ، وعطرٌ مفترسٌ له أنياب!

نختلفُ نحن أي هذه العطور هي الأجمل لأن شخصياتنا تختلف،

ولكننا نتفقُ جميعاً أن أقربَ العطورِ إلى القلبِ هي تلكَ التي تثيرُ فينا الحنين!

لا شيء يثيرُ فينا الحنين كرائحة أحبائنا،

رائحتهم الشخصية، رائحة أجسادهم لا عطورهم،

تلك التي تُشبه بصمة الإصبع، حيث لا يشترك فيها اثنان أبداً!

ونحن في غمرة اللقاء لا نُفكّر بالفقد أبداً،

تُرى لو كُنا نعرف أننا سنشتاقُ للروائح،

أما كُنّا عبّأنا روائحهم في قوارير، نرجعُ إليها خِلسةً كلما اشتقنا؟!

في غزوة الخندق،

جاء أبو طلحة الأنصاري إلى بيته،

وقال لزوجته أم سُليم:

إني سمعتُ صوتَ رسول الله ﷺ ضعيفاً،

أعرفُ فيه الجوع، فهل عندكِ شيء؟!

من يُحبكَ حقاً سيسمعُ صوتكَ بقلبه لا بأذنيه،

وحده من سيعرفُ أنكَ لستَ بخيرٍ،

سيرى الحزن في عينيكَ وإن خفيَ على النّاس،

سيلاحظ تغيُّركَ وإن بدا للجميع أن كل شيء عادي،

سيرى توترك الذي تخفيه باتزانك،

وخوفكَ الذي تُغلفه بطمأنينتك،

من يُحبُّكَ يشعرُ بك!

روى الخطيبُ في «تاريخ بغداد» قال:

سمعتُ مريمَ امرأةَ أبي عثمان الحِيريّ العابد تقولُ:

صادفتُ من أبي عثمان خلوةً، فاغتنمتها،

فقلتُ: يا أبا عثمان، أيّ عملٍ أرجى عندك؟

فقال: يا مريم، لما ترعرعتُ، وكانوا يريدونني على التزويج، فأمتنعُ،

جاءتني امرأةٌ، فقالتْ: يا أبا عثمان،

أسألُكَ بمقلّبِ القلوب، وأتوسلُ به إليكَ، أن تتزوجني!

قلتُ: ألكِ والدٌ؟

قالتْ: نعم، فلان الخياط،

فجئته، فخطبتها منه، ففرحَ بذلكَ،

وأحضرتُ الشهود، فتزوجتُ بها، فلما دخلتُ عليها،

وجدتها عوراء، عرجاء، قبيحة الوجه،

فقلتُ: اللهمّ لكَ الحمدُ على ما قدّرته لي،

وكان أهل بيتي يلومونني على ذلك،

فأزيدُ في وصلها إلى أن صارتْ لا تدعني أخرجُ من عندها،

فتركتُ حضور المجالس إيثاراً لرضاها، وحفظاً لقلبها!

ثم بقيتُ معها خمس عشرة سنة، وكأني في بعض أوقاتي على الجمر،

ولكني لا أبدي لها من هذا شيئاً، إلى أن ماتتْ!

فما شيءٌ من عملي عندي أرجى من حفظي ما كان في قلبها لي!

إن قال أحدٌ مُعقباً على هذه القصة:

ما ينبغي للمرءِ أن يجبرَ خواطر النَّاسِ على حساب خاطره،

وإنَّ من أحبَّني فإني أداريه،

ولكن ليس إلى الحدّ الذي يجعل عمري ثمناً لهذا،

فقد صدقَ، وما جانبَ الصَّواب أبداً!

فالإنسان نهاية المطاف قلب، وحيثما وجدَ قلبه أقامَ!

نعم نُقدّر كل إنسانٍ يحملُ في قلبه حُباً لنا،

ولكن تقدير هذه العاطفة النبيلة شيء،

والانجرار خلفها شيء آخر،

أنتَ حين تُجامل إنساناً في عاطفةِ حُبٍّ،

أبداها لكَ ولم تقع في قلبكَ موقعاً،

فإنكَ تؤذيه أكثر مما تجبر خاطره،

لأن اللحظة التي ستتوقف فيها عن المجاملة آتيةٌ لا محالة،

وكسرُ القلب هذه المرّة سيكون أكثر ألماً،

من ألم الصُّدود أول مرّة!

لا شيء يُؤذي المُحب أكثر من أن تُعشِّمه أولاً،

فيبني على هذا العشم أحلاماً، ويديرُ قافلة عمره باتجاهك،

ثم فجأة يضيعُ عشمه فيكَ!

ولا شيء أكثر قسوةً من أن تُضيء شمعةً في قلب إنسان،

ثم تنفخُ عليها بقوةٍ لتطفئها!

كونوا واضحين منذ البداية،

ولا تمشوا في طريقِ الحُب مدفوعين بالخجلِ والمجاملة،

واللهِ حدّثني صديقٌ لي خاضَ تجربة حُبٍّ من هذا النوع،

حُبٌّ من طرفٍ واحدٍ لم يجد بُدّاً من أن يُجاملَ فيه،

ثم انتهى الأمرُ بالزّواج وهو لا يجدُ قلبَه معها،

فقال لي واصفاً حاله:

مرّت عليّ لحظات كانت تضعُ يدها على يدي،

فأتمنى لو أنّ يدي تُقطع!

وما وصل لهذا إلا لأنه راعى خاطرها أولاً،

على حساب خاطره!

ما قلته من كلامٍ يصحُّ قبل الزّواج،

ولكن متى ما مشى الإنسانُ رحلة عمره،

عليه أن يدفع ثمن الرحلة التي قرر أن يمشيها،

فقلوب الناس ليست للتجريب،

وخواطرهم، وأعراضهم ليست ثوباً نملُّ منه ونرميه،

البيوتُ لم تقُم على الحُب كلها،

وإنما قام أغلبها على العِشرة، والتراحم، وميثاق الله الغليظ،

وليس لأحدٍ أن يُكره أحداً على الزواج من شخصٍ لا يريده،

كي لا يدفع الجميع الثمن لاحقاً،

ولكن متى ما وقع الفأس في الرأس،

فليس يصحُّ شيء غير ما كان من أبي عثمان العابد!

في رواية «إني راحلة» ليوسف السّباعي،

جملة من أكثر الجُمل التي قرأتها وجعاً،

جاءت على لسان «عايدة» بطلة الرواية،

بعد أن أجبرت على الزواج من شخصٍ لا تُحبّه،

وحين وُضعَ خاتم الخطبة من إصبعها قالت:

ما ظننتُ قط أن الإنسان يمكن أن يُخنقَ من إصبعه!

اتقوا الله في بناتكم وأولادكم،

لا تجبروهُنّ على الزواج ممن لا يُحبِبن،

لأنكم بهذا تظلمونهُنّ، وتظلمون من أُجبروا على الزواج بهنّ،

تقولُ إحدى الأمهات:

رفضتُ فتاةً يُحبها ابني، وزوجته بأخرى،

ليته عصاني، وحاربني بها!

فلم أستعِذ ابني منها أبداً،

إنها تقفُ كالجبل بيني وبينه، رغم أنه مرّ على هذا خمسة عشر عاماً،

أراها في عينيه، في حسرته على أعتاب صالات الأفراح،

أراها كلما جاء غاضباً من زوجته،

كرهني ابني، وأحبَّها!

إزخِ يدكَ، ما لا يحفظه الحُبُّ لا تُبقيه القوّة!

هذه الجملة هي أول ما خطرَ على بالي حين رأيتُ الأقفالَ التي،

يضعُها العُشّاقُ عند البُحيراتِ، وعلى جوانب الجُسور!

وعلى عكس كل الخُرافات البشرية التي يمكن تصنيفها بأنها معتقدات بالغة في القِدم،

إلا أنَّ فكرة قِفل الحُب حديثةٌ نسبياً!

على زعمهم، والنّاس يزعُمون كثيراً كما تعلمون،

يعود تاريخ «قِفل الحُب» إلى قصةٍ وقعتْ مع بداية الحرب العالمية الأولى،

حيث التقت المُدرّسة الصّربيّة «نادا»، بالجنديّ الصّربيّ «ريليا»،

عند جسر «موست ليوبافي»، ونشأت بينهما علاقة حُبٍّ قوية،

ثم ما لبثت طُبول الحربِ أن قُرِعت، ولبّى الحبيبُ «ريليا» نداء الواجب،

وتوجه مع أفراد كتيبته إلى اليونان، وهناكَ وقعَ في حُب امرأةٍ يونانية،

وأرسلَ إلى حبيبته القديمة يعتذرُ منها، وينهي علاقته بها!

لم تحتَمِلْ «نادا» هذه الصدمة العاطفية، ودخلت في جوٍّ من الكآبة،

ثم ما لبثت أن ماتت من الحَسرة!

وعلى وقع القصة التي انتشرت في المدينة،

سارعت النساء لكتابة أسمائهنّ وأسماء أحبابهنّ على أقفالٍ ووضعنه على الجسر،

حيث كانت «نادا» تلتقي بحبيبها! كي يحمينهنّ من أن تسرقنهنّ نساء أخريات!

وعلى وقع رومانسيّة القصّة، انتشرت أخبار الحادثة من مدينة إلى مدينة،

ومعها فكرة أقفال الحُب، حتى غدت اليوم ثقافةً عالمية!

لا يُربطُ المرءُ إلا من قلبه،

كُلُّ أقفال العالم لن تُقنعَ شخصاً بالبقاء ما دام قد عزمَ على الرَّحيل!

والأسوأ أولئك الذين أُجبروا على الرَّحيل لأنَّ أحبابهم

لم يتركوا لهم شيئاً يبقون لأجله!

وما دام في الأرض بشر، فسيبقى هُناك حُب،

وستبقى هناك قُلوب تُطعن في أعمق نُقطةٍ فيها!

يروي ابنُ سعدٍ في الطّبقات، أنّ الصّنابحي قال:

خرجنا من اليمن مهاجرين نريدُ النبيّ ﷺ،

فلما كنّا على مشارف المدينة،

أقبل راكبٌ يقول: دفنّا النبيّ ﷺ قبل خمس ليالٍ!

تأخر خمس ليالٍ فوتت على الصنابحي، رؤية وجه النبيّ ﷺ،

وكان من التابعين لا من الصّحابة!

بعض التأخر في اتخاذ القرارات،

سيبقى الإنسان يدفع ثمنه طوال العمر!

اضربْ حديدكَ حامياً، فمتى بردَ فقد فاتَ الأوان!

كم من حبيبة زُفت لغير حبيبها لأنه لم يُقدم،

وكم من وظيفةٍ ضاعت لأن موعد تقديم الطلب قد فات،

نعم كل شيءٍ بقضاءٍ وقدر،

ولكن حسرة الخسارة بسبب التأخير مريرة!

روى الإمامُ «أحمدُ بن حنبل» في كتابه «الزُّهد»،

عن أبي الجعد، قال:

كان رجلٌ في قوم صالح عليه السلام قد آذاهم،

فقالوا: يا نبيّ الله، أدعُ عليه!

قال: اذهبوا، فقد كُفيتموه،

وكان يخرجُ كل يومٍ، فيحتطبُ،

فخرج ذات يوم ومعه رغيفان، فأكل واحداً، وتصدَّقَ بالآخر،

ثم احتطبَ، وعادَ سالماً بحطبه،

فجاؤوا إلى صالحِ عليه السلام، فقالوا له:

قد جاءَ الرَّجلُ سالماً بحطبه، لم يُصبه شيء!

فدعاه، وقال له: أي شيءٍ صنعتَ اليوم؟

فقال: خرجتُ ومعي رغيفان، فأكلتُ واحداً، وتصدقتُ بالآخر،

فقال له: حِلَّ حزمة حطبكَ،

فحلَّها، فإذا فيها ثعبان مثل الجذع عاضٌ على حطبة منها،

فقال له صالح عليه السلام: بصدقتكَ دُفعَ عنكَ دُعائي عليكَ!

يا للصدقة ما أعظمها،

حمى الله تعالى بها كافراً من دُعاء نبيٍّ!

فكيف لو كانت صدقةٌ من يد مؤمنة؟

فاجعلْ لكَ كل يومٍ صدقةً ولو رغيفاً،

ولا تنظُرْ إلى قليل ما قدَّمتَ،

ولكن أنظُرْ إلى عظمة من قصدتَ بصدقتكَ!

هذه الدنيا لها أسنانٌ حادة جداً،

وهي لا تكفُّ عن نهش الإنسان يَمنةً ويسرةً،

ومن كان له في كل يومٍ صدقة،

فقد وقى نفسه بدرع الله الحصين،

نحن نعلمُ ما أصابنا فقط،

ولكننا لا نعلمُ السوء الذي صُرِفَ عنا،

واللهِ لو كشفَ اللهُ لنا حُجب الغيب،

لأصابنا العَجبُ الذي لا تسعه لُغة، ولا يطيقه تعبير،

لربما وصلتَ إلى عملكَ سالماً بأذكار الصباح،

ولولاها كان حادثٌ ما بانتظاركَ،

وقد قُبلتَ في وظيفةٍ بدعاء مسكينٍ جبرتَ خاطره،

فجعلَ الله في وجهكَ نوراً استحسنه من أجرى لكَ المقابلة،

وقد يسَّرَ الله عليك امتحان الجامعة الذي كنت تخشاه،

بدعاء أبوين أنتَ بارٌ بهما،

ولولاهما لربط الله على قلبك ولسانك فما صنعت شيئاً!

والعكس بالعكس، والضِّدُ صحيح!

كم عثرةٍ عثرتها في هذه الحياة،

كانت بكسر خاطرٍ قمتَ به ونسيته،

وكم ظُلمٍ تعرضتَ له في عملك،

كان بالأساس ظلماً سقيته لغيركَ،

وقد دارت الأيام الآن وأنتَ تشربُ من ذات الكأس،

ولربما هذا الضيق الذي تشعرُ به في صدركِ،

هو ضيق أنزلته في صدر إنسان والآن يُوفَّى إليكَ،

ولعلَّ هذا الشقاق بينك وبين أهل بيتك،

هو عاقبة بيتٍ أجريت بين أهله الشقاق،

وإنك لتظنُّ أنَّ هذا الذي افترى عليكَ وشوَّه سمعتكَ،

قد فعل هذا معكَ ابتداءً،

ونسيتَ حين سُئلتَ عن فلانٍ أو فلانة للزواج،

فشوَّهتَ سمعاتهم، وأكلتهم بلسانك، وخُضتَ فيما لا تعلم،

كانوا هم غائبين، ولكن الله تعالى كان حاضراً!

إنَّ الله تعالى رحيمٌ، ولكنه عادل،

وما كان من ذنبٍ بين عبده وبينه،

قد لا يُعاقبه به في الدنيا، وإنما يُؤخره إلى يوم القيامة،

فإن شاء عفا تكرماً، وإن شاءَ عاقبَ عدلاً،

ولكن ما كان من ذنبٍ للعبد بينه وبين الناس،

ففي الغالب إن الله سبحانه يقتصُّ في الدُّنيا،

يُذيقُ العبدَ مرارة ما أذاقَ غيره،

ستزوركم أفعالكم فلا تتفاجأوا بها!

اشتكت أروى بنتُ أويس سعيدَ بن زيدٍ،

عند مروان بن الحكم وكان يومذاك والياً على المدينة،

واتهمته أنه أخذ شيئاً في أرضها فأدخله في أرضه،

فاستدعى مروان بن الحكم سعيد بن زيد،

وأخبره بشكوى أروى بنت أويس عليه،

فقال سعيد: كيف آخذُ من أرضها وقد سمعتُ، النبيَّ ﷺ يقول:

من اقتطعَ شبراً من الأرض ظُلماً،

طوّقه الله من سبع أرضين يوم القيامة،

ولأن مروان بن الحكم يعرفُ أن سعيد بن زيد من العشرة المبشرين بالجنة،

قال له: لستُ أطالبك بعد الآن ببينة!

ولكن سعيداً تركَ لها ما ادّعت أنه لها،

ثم رفع يديه يدعو عليها يقول:

اللهمّ إن كانت أروى ظلمتني فاعمِ بصرها، واجعلْ قبرها في بئرها!

فعميت أروى بعد ذلك،

وكانت يوماً تمشي في أرضها فوقعت في البئر،

فلما عجزوا عن انتشالها ردموا البئر عليها فكانت قبرها!

108

كان لأبي الدرداء جملٌ اسمه «دمُّون»

وكان إذا استعاره أحدٌ منه قال له:

لا تحملْ عليه إلا كذا وكذا،

فإنه لا يطيقُ أكثر من ذلك!

فلما حضرته الوفاة، قال مخاطباً الجمل:

يا دمُّون، لا تُخاصمني غداً عند ربي،

فإني لم أكن أحملُ عليكَ إلا ما تطيقُ!

ارحموا تُرحموا، ولا تُحملوا الآخرين فوق ما يطيقون،

ارحمي زوجكِ!

أعرفُ أن متطلبات الحياة كثيرة، والبيوت ينقصها الكثير،

ولكن شعور الإنسان بالعجز مريرٌ جداً،

ارحمْ زوجتكَ!

أعرفُ أنكَ تريدُ أنوثةً، واهتماماً، وحضوراً،

ولكن متطلبات الأسرة، وعمل البيت، يطحنان العظم،

وشعور الإنسان بالتقصير رغم كل جهوده قاتل!

تغاضوا، وتغافلوا، وغضوا الطرف قليلاً،

جميعنا في هذه الحياة نخوض معاركَ لا يعلمُ بها إلا

الله!

يروي «إيسوب»، فيلسوف الإغريق الشهير، وقاصُّها البارع، في كتابه «خُرافات»،

أنَّ الريح والنوم تنازعا في أيهما أقوى!

ثم اتفقا أن المنتصر هو من يستطيعُ أن ينتزعَ الرغيف من يدِ هذا الصبيّ المُتسوّل!

حاولت الريحُ أولاً، فكانت تهبُّ بجنون وغطرسة،

وتحملُ الصبيّ، وتُلقيه أرضاً علّه يترك الرغيف،

ولكن الصغير كانَ جائعاً إلى درجةِ أنه حضنَ الرغيف إلى صدره،

وقررَ أن كسر عظامه أهون عليه من تركِ الرغيف!

وبعد محاولاتٍ عديدةٍ ويائسةٍ، قررت الريح أن تتوقف، لا جَدوى من المحاولة!

عند ذلك حانَ وقتَ النوم ليجرِّب قوته،

فتقدَّمَ من الصبيّ بهدوء، وأخذَ يمسحُ على رأسه بحنان،

وما هي إلا دقيقة حتى كان يغطُّ في نومٍ عميقٍ وقد أفلتَ الرغيف من يده!

عندها أخذَ النومُ الرغيف، ورفعه عالياً، وقالَ للريح: أينا أقوى؟!

أدارت الريح ظهرها معترفةً بالهزيمة، ومضت في سبيلها!

كثيرٌ من مشكلات الحياةِ تحتاجُ إلى عقلٍ لا إلى عضلات،

وستتعلمُ الكثير إذا لاحظتَ أن العاصفة تستطيع تحطيم سفينة

ولكنها لا تستطيع فكّ عقدة في حبل!

الهدوءُ والاتزانُ يحلان المشكلاتِ بأقلّ الأضرار،

أما العُنف فلو حلّ المشكلة فإنه سيؤدي إلى كسرِ أحدِ أطرافِ النزاع،

والشخص الذي يبحثُ دوماً عن كسبِ المواقفِ بدل كسب الناس

سيعيشُ نهاية المطاف وحده، ويموتُ وحده!

الهدوءُ والاتزانُ إن لم يحلا المشكلة فعلى الأقلِ لن يؤدّيا إلى تفاقمها،

أما العنف فإن حلّها فقد كسرَ خاطراً، وإن لم يحلها فاقَمَها!

كانَ النبيُّ ﷺ في بيتِ أمنا عائشة،

وطبختْ إحدى زوجاته طعاماً واشتهتْ أن تُطعمه منه،

فأرسلتْ خادماً له بصحفةٍ إليه.

ولما طرقَ الخادمُ البابَ، وقامتْ عائشة لتفتح،

والنبي ﷺ عندها مع بعض أصحابه،

رأث المشهد فلم تتمالك نفسها من الغيرة،

فضربث يد الخادم، فوقعث الصحفة، وانكسرث!

يا له من موقفٍ مُخرِجٍ لزوج، ويا لمشكلة ستقعُ لو أن الزوج كان واحداً منا،

ولكن النبيّ ﷺ أخذَ يجمعُ فلق الصحفة،

ثم يجعلُ فيها الطعام الذي انسكبَ على الأرضِ ويقولُ لأصحابه:

غارث أمكم، غارث أمكم!

وهكذا وأدَ المشكلة في مهدها!

الهدوءُ والاتزانُ سرُّ اللعبةِ فكونوا هادئين!

يقول الرَّافعيّ راوياً مما قرأ:

لما ماتت امرأة أبي ربيعة الفقيه،

دفنها، ونفضَ يديه، ثم رجع إلى داره،

فحوقلَ، واسترجعَ، وبكى، ثم قال يُخاطبُ نفسه:

الآن ماتت الدَّارُ أيضاً يا أبا ربيعة،

إنَّ البناء يحيا بروح المرأة التي تحيا داخله!

قدِّروا قيمة بعضكم وأنتم أحياء،

عبِّروا عن مشاعركم، وجاهروا بالحُب ولا تخجلوا،

قُبلة على جبين حيٍّ، خير من باقة على قبره،

لا تجعلوا الحُب حبيس الصدور،

ترجموه إلى أقوال، وأفعال، عيشوه، ودعوا من معكم يعيشوه أيضاً،

حِنُّوا على بعض، فالموت لا يُعطي إنذاراً،

وسارعوا في الصلح، فلا تعلمون متى سيكون آخر حديث،

لِينوا، فإنَّ الندم لا يعيدُ راحلاً،

فلا يكون نصيباً من بعضٍ قول عبيد بن الأبرص:

لا ألفينَّك بعد الموت تندبني

وفي حياتي ما زوّدتني زادي!

لعلَّ قلبكَ قد كُسرَ عميقاً،

ولعلَّ جرحاً تحاولُ إطفاءَ ناره فلا تستطيع،

ولعلّكَ تحاولُ أن تغفر فلا تستطيع،

رغم أنكَ كنت من قبل تعفو وتصفح،

ولكنكَ هذه المرة تجدُ أن الأمر قد اختلف جداً،

الجرح غائر، والنزف حثيث،

ولعلكَ رفضتَ كل مساعي الصُّلح،

فلما رأوكَ هكذا اتهموكَ بالقسوة وعدم التسامح،

وأنتَ عبثاً تحاولُ أن تخبرهم،

أن مقدار الجرح قد فاق القدرة على العفو،

لكن لا أحد يكترث،

جميعهم يريدونك أن تطوي جرحكَ وتمضي قُدماً،

تماماً كما يطوي المرءُ صفحةً من كتابٍ بين يديه،

وأنتَ عالقٌ في هذه الصفحة،

وبودّك لو تطويها فعلاً، ولكنّكَ لا تستطيع،

ولعلكَ تحت كل هذه الضغوط تسأل نفسكَ:

هل أنا قاسٍ فعلاً؟

ألا يحقُّ للمرءِ أن يرفضَ أن تعود المياه إلى مجاريها؟

هوِّنْ عليك، ما بكَ من بأسٍ أبداً،

بعض الأخطاء لا تُغتفرُ!

وبعض الجروح يجب أن تُقام لها مراسيم العزاء دوماً!

وبعض الوجوه يجب أنْ لا نراها ما حيينا،

وبعض الماء من الأفضل أنْ لا يعود إلى مجاريه،

لأنه إن عاد، فسيعودُ آسناً ولا يصلح للشُّرب!

وإنَّ لكَ في النبيِّ ﷺ عزاءً!

أثخنَ حمزة بن عبد المطلب في قريشٍ يوم بدر،

أردى سادتهم، وقتل فرسانهم بيده،

ومن لم يقتله بنفسه اعتبرته قريشٌ كأنه قد قتله فعلاً،

فحمزة في تلكَ الغزوة كان من الجيش، بموقع رئيس هيئة الأركان!

لهذا لم يكن مستغرباً أن يكون المطلوب الأول لهم في غزوة أحد،

والتقى الجيشان كما المرة السابقة،

وحمزة كعادته يصول ويجول ويزأر،

كيف لا وهو أسد الله وأسد رسوله!

غير أن وحشي بن حرب كان عبداً في قريش،

وكان أمهر عبيد مكة رمياً بالحربة،

وكان قد وُعِدَ بالحرية والعتق إن هو قتلَ حمزة،

وفي حين كانت معركة حمزة مع قريش كلها،

كانت معركة وحشي مع حمزة فقط!

وفي لحظة انشغال حمزة بنزالٍ،

رماه وحشيٌ بحربته، فأصابه في مقتلٍ،

وخرَّ الأسد الهصورُ شهيداً!

ثم بعد انتهاء المعركة، وبطلبٍ من هند بنت عتبة،

التي قتل حمزة أباها في غزوة بدر،

شقَّ وحشيٌ بطن حمزة، وأخرج كبده،

الأمرُ الذي آلمَ النبيَّ ﷺ كثيراً،

حين رأى عمَّه، وقائد جيشه، قد مُثِّلَ به!

ودارت الأيامُ، وقَوِيث شوكة الإسلام،

وها هو النبيُّ ﷺ يدخلُ مكة فاتحاً،

وهربَ وحشيٌ إلى الطائف خوفاً من فعلته،

ثم إنه قد قيل له:

إنَّ الرّجل نبيٌ، وإنه لا يثأر لنفسه،

وقد قال: الإسلامُ يُجبُّ ما كان قبله،

فلو أتيته وأسلمتَ، لقبلَ منك، وعفا عنك!

وقد عفا عن قريشٍ كلها،

وهي التي أخرجته من بيته، وكذّبته، وقاتلته،

فجاءَ وحشيٌ إلى النبي ﷺ،

فلما رآه قال له: أنت وحشي؟

قال: نعم.

فقال له النبيُ ﷺ: أنت قتلت حمزة؟

فقال: قد كان الأمر ما بلغكَ،

وقد جئتُ أشهد أن لا إله إلا الله، وأنكَ رسول الله!

فقال له النبيُ ﷺ: فهل تستطيع أن تُغيّب وجهكَ عني؟

ولم يلتقيا بعدها أبداً...

فلما قُبضَ النبيُ ﷺ، وادعى مسيلمة الكذاب النبوة،

خرجَ وحشيٌ في جيش المسلمين، وقتلَ بحربته مسيلمة!

وكان بعدها يقولُ: قتلت بحربتي هذه خير الناس، وشر الناس،

حمزة بن عبد المطلب، ومسيلمة الكذاب!

والشّاهدُ في القصة، قول النبيِّ ﷺ لوحشي:

فهل تستطيعُ أن تُغيّبَ وجهكَ عني؟!

من ناحية شرعية لا يستطيعُ النبيُ ﷺ، أن يردّ إسلام وحشي،

لا أحد يستطيع أن يمنعَ أحداً من دخول الإسلام،

ولكن جرح النبيّ ﷺ شأنه الخاص،

وقد كان جرحه ما زال نازفاً،

لم ينسَ عمه بعد، ولم ينسَ ألمه القديم،

وكان يعرفُ أنه كلما رأى وحشيّ بن حربٍ سيتذكر جرحه!

فأراد أن يُريحَ ويستريح، لا أراكَ، ولا تراني!

الشخص الذي يريدُ علاقةً مع جارِحِه،

ليس بالضرورة حاقداً، ولا أن قلبه أسود،

كل ما في الأمر أن بعض الجروح لا تُنسى!

قال المُزنيّ: سمعني الشّافعيّ يوماً،

وأنا أقولُ: فلانٌ كذّاب!

فقال لي: أكسُ ألفاظكَ أحسنها،

لا تَقُل كذّاب، قُل حديثه ليس بشيء!

اختاروا مفرداتكم بأناقة، وتذوقوها قبل أن تُذيقوها غيركم،

اللسان ليس عظماً، ولكنه واللهِ يكسر العظم،

ورحم الله الأوائل، كانوا يبحثون لأفكارهم،

عن قوالب لغوية جميلة كما نبحثُ نحن اليوم،

عن ثيابٍ جميلة لارتدائها في حفل!

رأى عمر بن الخطاب ناساً قد أوقدوا ناراً،

فدنا منهم ونادى: يا أهل الضوء،

ولم يقُل يا أهل النار، خشية أن تجرحهم الكلمة،

وسأل هارون الرشيد الأصمعيّ: ما جمع مسواك؟

فقال له: ضِدّ محاسنكَ يا أمير المؤمنين،

وكره أن يقول له: مساويك!

في مدخل متحف الشَّمعِ في العاصمة النمساوية فيينا،

يُطالعُكَ نابليون بونابرت، إمبراطور فرنسا الأشهر،

كان قصير القامة بشكلٍ مُفرط، يخافُ من القِطط، والأماكن الضَّيقة!

يبدو لي أنه لا أحد منّا إلا ويخافُ شيئاً ما،

وأن قوة الإنسان تكمنُ في إخفاء مخاوفه عن الآخرين!

سألتُ جدّتي رحمها الله، وهي في آخر أيامها في الدنيا: ممَ تخافين؟

فقالت لي: أن أفقدَ شخصاً أُحبُّه!

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتساءلُ فيها: هل يمكن للمخاوف أن تتوارث؟!

بالمناسبة، والمناسبات كثيرة، والكلام يستدعي بعضه، وثمة قصص لا تُفارقنا!

كلما ذُكر أمامي اسم نابليون تخيلتُ ذاك الضابط النمساوي الذي خان بلده،

وعمل جاسوساً عند نابليون، ولولاه ما استطاع احتلال النمسا،

وبعد انتهاء الحرب، جاء هذا الضابط ليتقاضى ثمن خيانته،

فرمى له نابليون كيس النقود على الأرض!

فقال له الضابط: إن طموحي أكثر من هذا، أريدُ أن أتشرف بمصافحة يد الإمبراطور!

فقال له نابليون: الذهب لأمثالك، أما يدي فلا تُصافح من خان وطنه!

إن من العظمة أن يكون المرءُ كبيراً في عين عدوّه!

ألا ينحني ولا يميل، أن يموت واقفاً ولا يركع،

وأن يُقرر ألا يكون لقمةً سائغة، وأن يعمل لنصرٍ ساحق،

فإن لم يكن، فليفسد نصر عدوّه عليه، ويجعله باهتاً، لكثرة ما يُكبده من خسائر!

يقولون، ولا يفعلُ الناس شيئاً أكثر من أن يقولوا:

أنَّ المهزوم الذي يُقاوم بشراسة، لا يمكن للمنتصر أن ينساه!

إنه يحلمُ به دائماً، وإنها لجائزة المهزوم الشجاع أن يبقى حاضراً ولا يغيب!

وبالعودة إلى نابليون، فإن طموحه كان أن يصبح بحاراً،

وبالفعل انتسبَ إلى مدرسة متواضعة لتخريج البحّارة،

ولكن الدنيا مشت بطريقة أخرى، والظروف تهيأت،

فوجدَ نفسه في خضم بحر متلاطم الأمواج، ولا خيار آخر أمامك إلا أن تسبح!

تُفرض المسؤوليات علينا أحياناً،

نجد أنفسنا نحملها دون أن نُسأل عن رغباتنا، ولكن لا مناص من أن نُكمل!

ومع المسؤولية يتعرف الإنسان على نفسه،

ثمة مناطق في داخله كان يجهلها، ثمة قوّة لم يكون يعرف أنها كامنة فيه!

من يُقنعُ حبّة القمح أن داخلها سُنبلة؟!

ولكن عندما تتهيأ الظروف، عندما تُدفن، وتجد نفسها غارقة في الطين،

لا خيار آخر أمامها إلا أن تُنبث وتنمو!

لتقف نهاية المطاف فخورة بهذه الصعاب التي عرّفتها على نفسها!

روى «ابنُ كثيرٍ» في «البداية والنهاية»:

أن جُعيف السَّمرقندي كانَ صاحباً للخليفةِ العباسيّ المُعتضد،

وأنه خرجَ معه ذات يومٍ في رحلةِ صيد، فابتعدا عن العسكر،

وكانا وحدهما، فخرجَ لهما أسد!

فقالَ المُعتضد: يا جُعيف أفيكَ خيرٌ اليوم؟

فقالَ له: لا واللهِ!

فقالَ له الخليفة: ولا أن تمسكَ فرسي لأنزل؟

فقالَ له: بلى.

فنزلَ المُعتضد، واستلَّ سيفه، فهجمَ الأسدُ عليه،

فضربَهُ بالسيفِ ضربةً قطعَ له فيها يده،

فانشغلَ الأسدُ بيده، فضربَهُ على رأسه بالسيفِ فقتله!

ويقولُ جُعيف: وصحبته إلى أن مات، فما سمعتُهُ ذكرَ ذلك لأحدٍ!

وإني والله لا أدري من أيِّ شيءٍ أعجبُ؟

من شجاعته، أم مِن عدمِ احتفاله بذلك حيثُ لم يذكره لأحد؟

أم من عدمِ عتبه عليّ حيثُ ضننتُ بنفسي عنه؟

واللهِ ما عاتبني قط!

يجب علينا أن نعلمَ أن الناس لا يستطيعون أن يخرجوا من قفصِ بشرِيتهم،

مهما آمنوا أو كفروا، ومهما اغتنوا أو افتقروا!

حتى الأنبياء الذين هُم صفوة البشر،

كانوا في حياتهم ومشاعرهم الإنسانيةِ كبقيةِ الناس!

فكليمُ الله موسى عليه السلام خافَ حين ألقى السحرةُ حبالهم وعصيهم،

لأنه قبل أن يكون نبياً هو إنسان،

وأخذته سَورةُ الغضبِ حين عادَ إلى قومه ووجدهم يعبدون العجل،

وقد ألقى الألواحَ التي فيها التوراة، وأخذَ برأسِ أخيه ولِحيته!

هذا لأنه إنسان من لحمٍ ودم!

وقد انفطرَ قلبُ نُوح عليه السلام حين غرقَ ابنه في الطوفان،

هذا لأنه قبل أن يكونَ نبياً كان أباً!

وبكى النبيُّ ﷺ فقدَ ابنه إبراهيم، وعمه حمزة، وزوجته خديجة،

ذلك أن الإنسان وإن كانَ نبياً يعزُّ عليه فقدُ أحبابه!

فتعاملوا مع الناسِ وفق هذه الحقيقة، أنهم ناس!

المرأةُ لو ملكتْ مال قارون ستفرحُ إن أهداها حبيبها وردة،

لا لأنها لا تستطيع شراءها، بل لأنّ امتلاك الأشياء لا يعني امتلاك بهجتها!

وهي مهما بلغتْ من القوةِ والمنصبِ فلا تستغني عن كتفِ رجل،

ولمسةٍ حانية، وكلمةٍ حلوة، لأننا قبل المناصب ناس!

أن يحكمَ المرءُ شعباً كاملاً لا يسد حاجته لأن يكونَ له ولد،

لأن هذه فِطرة وحاجة إنسانية!

فلا تتوقعوا أن يكونَ الناس ملائكة،

نحن نخاف، ونغضب، وننكسر، ونفقدُ الشغف،

ونحزن، ونبكي، ونكره، تماماً كما نُحب، ونرضى، ونُسامح، ونضحك.

فعيشوا إنسانيتكم وتذكّروا أن الناسَ الذين تتعاملون معهم هم أيضاً ناس!

في كتاب «روضة العُقلاء» لابن حبّان:

سبَّ رجلٌ الإمامَ وكيع بن الجرّاح فلم يُجبه،

فقيل له: ألا تردّ عليه؟

فقال: ولمَ تعلمنا العلمَ إذاً؟!

في هذه الحياة ستسمعُ أقوالاً مؤذية،

سيُكسرُ قلبكَ بلسانِ أحدهم،

وأحدهم هذا لو أردتَ أن تنتقده،

فإنكَ والله تحتارُ من أين تبدأ،

ستجدُ في صدرك ألف ردّ، وعلى لسانك ألف كلمة تخرسه،

ولكنكَ ستختارُ أن تسكت، لا ضعفاً ولا عجزاً،

ولكن لأنك تعرفُ أن البعض،

حتى الكلام خسارة فيهم!

عن أبي جعفر الألباني صديق الإمامِ أحمد قال:

لمَّا علمتُ أنَّ المأمون يُريدُ الإمام ليقول بخلقِ القُرآن،

عبرتُ الفُرات، فأدركتُهُ قبل أن يأخذوه.

فقالَ لي: يا أبا جعفر، أرادني الخليفةُ ليمتَحِنِّي في ديني!

فقلتُ له: يا أحمد أنتَ اليوم رأس، والناسُ يقتدون بكَ،

فواللهِ لئن أجبتَ إلى خلقِ القُرآنَ ليُجيبنَّ خلقٌ كثير،

وإن أنتَ لم تُجبْ ليمتنعنَّ خلقٌ كثير.

ومع هذا فإنَّ المأمون إن يقتلك فإنكَ لا بدَّ ستموتُ آخر الأمر،

فاتقِ اللهَ بنفسكَ وبالناس!

فجعلَ أحمدُ يقولُ لي: أعِدْ عليَّ مقالتكَ يا أبا جعفر.

فجعلتُ أُعِيدُ عليه، وهو يبكي ويقول: عزَّيتني عزَّاكَ الله!

لحظاتُ الجبرِ في مواقفِ الانكسارِ لا تُنسى!

ولو استغنى أحدٌ عن المواساةِ لاستغنى عنها النبيُّ ﷺ،

ولكنه بأبي هو وأمي إنسان،

ففي عامِ الحزنِ ضاقت عليه الدُنيا لا مكة فحسب،

خديجة جبهته الداخلية وأشرس جنوده،

حضنه وأمنه وأمانه اختارها الله إلى لقائه!

وأبو طالب جبهته الخارجية، وأحن أعمامه عليه،

الذي كانَ يحوطُهُ ويرعاه، ويحولُ بينه وبين قُريش قد ماتَ أيضاً!

ويا لها من لحظات، ويا لقلبِ النبيِّ ﷺ وقتذاك،

فاستدعاه ربه إلى السماءِ في حادثةِ الإسراءِ والمعراج،

فالأرض كلها أحياناً لا تكفي لتكون عزاءً!

في حادثةِ الإفكِ دخلت امرأةٌ من الأنصارِ على عائشة،

فلم تُحدِّثها كلمة، وإنَّما واستها بأن بكت معها،

فلم تنسها عائشة لها!

وعندما تابَ اللهُ على كعب بن مالك بعدما تخلَّفَ عن غزوةِ تبوك،

ودخلَ المسجد، قامَ إليه طلحة مُهروِلاً يعتنقه،

فلم ينسها كعبٌ لطلحة!

لا تستهينوا بمواقفِ الجبرِ فإنها تُحدِثُ الكثيرَ في القلوب!

كلمةٌ تقولُها قد تُثبتُ بها عالماً يُراودونه عن دينه،

وعناقٌ قد تجبرُ به خاطراً،

وتربيتةٌ على كتفٍ قد تُداوي فيها جرحاً،

وزيارةُ لمريضٍ لا يتفقده أحد قد تُحلقُ بروحه إلى السماءِ من فرطِ السعادة،

فنحن أرواحٌ وقلوبٌ لسنا أجساداً فقط، فترفَّقوا!!

في حادثة الإفك التي رُميت بها،

أمنا عائشة بالزنا كذباً، وافتراءً، وبهتاناً،

جملةٌ أتحسسها دوماً وتوجعني:

تقولُ الصّديقةُ بنتُ الصّديق:

بكيتُ حتى ظننتُ أنّ البكاء فالقٌ كبدي!

صحيح أن بعض التُّهم تخلعُ القلب،

وتجعلُ المرءَ يريدُ أن ينفجر، لا أن يبكي فقط،

تخيلوا مرارة أن تُجلد عفيفة بألسنة الكاذبين في عرضها،

ولكن ما أردتُ قوله:

إن الحزن الشديد يُذيب القلب ويكسره،

تجعلُ المرءَ يشيخ وكأنّ له عُمر نوحٍ عليه السَّلام،

صحيح أن في البكاء راحةً، ومتنفساً،

ولكن رفقاً بأنفسكم، وسلموا الأمرَ لله،

انقلوا ملفَّ القضية من الأرض إلى السماء،

بقول حسبي الله ونعم الوكيل!

هنا، في «براتيسلافا» عاصمة سلوفاكيا،

جلسنا في الحديقة العامة بجانب رجلٍ كبيرٍ في السّن،

كان يسترِقُ النّظرَ إلينا كما يفعلُ النّاسُ في وجوه الغُرباء!

لاحقاً عرفتُ أنه الفضول لا الرِّيبة، وأنَّ ما شدّه هو حرفنا العربيّ، لا وجوهنا!

لكسر هذا الجمود الذي شعرتُ به، تقدّمتُ منه،

ومددتُ إليه يدي ببعض الحلوى والعصير، ولكنه اعتذرَ بأدبٍ،

وسألني: هل أنتم عرب؟!

قلتُ له: نعم.

قال: مسلمون؟

قلتُ: نعم.

فقال بلغة عربية لا بأس بها: الحمدُ لله!

عندها بدأت الجلسة تحلو وتطيب، فتعارفنا سريعاً،

فإذا به السيد «إبراهيم أوزال» أكاديمي تركي متقاعد،

مولع بالقصص الشعبي، وهو في إجازة هنا!

وعندما أخبرته بأن أطروحتي في الدكتوراة كانت في الحكاية الشعبية الفلسطينية،

انبسطَ إليّ انبساطاً أعرفه حين يعثرُ المرءُ على من يُقاسمه شغفه!

طلبتُ منه أن يحكي لي حكايةً شعبيةً تركية،

فقال: لا، نحن هنا، سأروي لكَ حكايةً شعبيةً من هذه البلاد!

قلتُ له بشيءٍ من الاهتمام: هيَّا!

فقال، والحكاية الآن منه والصياغة مني:

يحكي أهل هذه البلاد، أنه في قديم الزمان حكمهم ملك،

كانت تنقصه الحكمة والخبرة، فسأل عمّن يمكنه أن يُعلمه شيئاً منهما،

فدَلُّوه على حكيمٍ يسكن عند أطراف المملكة، فقصده،

ولكنه عندما وصلَ إلى بيته لم تعجبه تلك البساطة التي بدا عليها البيت من الخارج،

فقال في نفسه: كيف لحكيمٍ أن يعيش هنا؟!

ولكنّه تجاوز هذه النقطة، وقرر الدخول إلى بيت الحكيم!

وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى الحكيم قبيحاً أيضاً!

فقال له بشيءٍ من الاستخفاف: كيف يكون المرءُ حكيماً،

وهو يعيش في بيتٍ كهذا، وهو فوق هذا قبيح؟!

ولكنّ الحكيم لم يرُدّ على هذه النقطة مباشرة، وإنما قال له:

سيدي الملك، ما نوع البراميل التي تحفظ به النبيذ الخاص بك؟

فقال له الملك: براميل خشبيّة بالطبع!

فقال له الحكيم: لمَ تحفظها في براميل خشبية كما يفعلُ فقراء الناس،

أليس بإمكانك أن تحفظها في براميل من فضة، أو من ذهبٍ حتى؟!

عاد الملك إلى القصر، وأمرَ بصنع براميل بعضها من فضة،

وبعضها الآخر من ذهب، ثم نقلَ إليها نبيذه الفاخر.

ولكن سرعان ما فسدَ النبيذ، وخرجت منه رائحة كريهة،

فغضبَ الملك من الحكيم، وأرسل الجنود لاعتقاله، وإحضاره إليه على الفور!

لم تمضِ ساعات حتى كان الحكيم مقيداً بالأغلال بين يدي الملك،

الذي قال له بغضب: أتعرفُ أنك قد أفسدتَ نبيذي؟!

فقال له الحكيم: أعرفُ هذا جيداً!

ازدادَ غضبُ الملك، وصرخَ في وجه الحكيم قائلاً:

وتجرؤ على الاعتراف بهذا أيضاً؟!

فقال له الحكيم: سيدي الملك، براميل الخشب وحدها تحفظ النبيذ لسنوات طويلة،

وإن كانت أقل أناقة، وأرخص سعراً من براميل الفضة والذهب،

عليكَ ألا تحكم على الأشياء من مظاهرها، وهذا هو درسي الأول لكَ!

أُعجبَ الملك بالحكيم، وأمرَ بضمّه إلى القصر، وصار من وقتها مستشاره الخاص!

يبدو أن كل شعوب الأرض تُعاني ذات الآفات الفكرية،

وأن البشر في كل زمان ومكان، هم نُسخ مكررة عن بعضهم،

وأن هذه البشرية منذ مجيئها إلى هذا الكوكب، وحتى نفخ إسرافيل في الصور،

سيبقى بعضهم يُفتنون بالمظاهر، ولا يرون من الأشياء إلا ما تُريهم أعينهم!

يروي «ليوناردو دافنشي» في كتابه «الأعمال الأدبية» قصةً يقول فيها:

حملَ غرابٌ ثمرة جوزٍ بمنقاره وحلَّقَ بها عالياً،

ولكنها وقعتْ منه في شقٍّ في جدارِ البرج الذي عُلِّقَ عليه جرس المدينة الكبير.

قالتْ الجوزة للبرج: يا أيها البرج الشاهق، صاحب الجدران المتينة،

والجرس الجميل عذب الصوت، ناشدْتُك الله أن تأويني عندك!

فأنا للأسف لم أسقط من الغراب تحت أمي شجرة الجوز لترعاني،

ولا سقطتُ في أرضٍ ثانيةٍ فأتدبَّر أمري،

لا أريد منك غير أن تمنحني مكاناً صغيراً في هذا الشق!

سمعَ الجدارُ هذه الكلمات، فرقَّ لحالِ الجوزةِ المسكينةِ

التي اقتلعَها غرابٌ من غصنِ أمها الشجرة، وقرَّرَ أن يحتضنها.

وعندما أمطرتْ السماء، تفتحتْ ثمرة الجوز،

ونبتَ لها جذور، وصارتْ تكبرُ شيئاً فشيئاً،

وكانتْ كلما قويَتْ وتضخمَ جذعها تصدَّعَ الجدار،

فهدمَتْهُ ووقفتْ مكانه!

قالت العرب قديماً: اتَّقِ شرَّ من أحسنتَ إليه.

وهذا القولُ ليس تحريضاً على تركِ الإحسان،

ولكنه تحذير على أن المعروف لا يُثمر دوماً في الناس!

اشترى «المُتوَكِّل» سيفاً بعشرةِ آلاف درهم وأهداه «لباغر التركي»!

وأول ضربةٍ ضربها «باغر» بالسيف كانت في ظهرِ المتوكل!

والجملةُ الشهيرةُ التي قالها يوليوس قيصر: حتى أنت يا بروتس!

قالها وهو يتجرّعُ مرارةَ الخذلانِ حين رأى بروتس،

أحب أصدقائه إلى قلبه، ينهالُ عليه بالطعن!

عافانا الله وإيّاكم من الغدرِ والغادرين!

روى المؤرخ محمد راغب الطباخ، أنّ الشيخ إبراهيم الهلالي الحلبي،

العالِم الصالِح الجليل، قد ذهبَ من حلب إلى القاهرة ليطلب العلم في الأزهر،

وأثناء طلبه العلم هناك، افتقرَ وضاقت به الدنيا

حتى لم يكد يحصل على لقمة خبز،

ومضى عليه أكثر من يوم دون أن يأكل شيئاً،

فخرج من غرفته في الأزهر ليسأل عن طعام،

فشاهد باباً مفتوحاً، وشمّ منه رائحة طعام، فدخل المطبخ،

ولم يجد أحداً في البيت، فأخذ الملعقة وغمسها في الوعاء،

ثم انتبه، وقال في نفسه: دخلتُ بيتاً دون إذن،

والآن أريد أن آكل طعاماً بالحرام،

والله لا يكون وإن متُّ جوعاً!

وترك الملعقة في الوعاء، وخرج!

ولم يمضِ عليه أكثر من ساعة إلا وأحد شيوخه ومعه رجل يدخلان عليه غرفته،

وقال له الشيخ: هذا الرجل الفاضل،

جاءني يريدُ طالب علمٍ صالح ليكون زوجاً لابنته،

وقد اخترتُك له، فقُم بنا إلى بيته لنعقد لكَ عليها!

فقام معهما متحاملاً على نفسه،

فإذا هو البيت الذي دخله، وغمس الملعقة في طعامه!

ولما عُقِدَ العقدُ، جيء بالطعام، فإذا بالملعقة ما زالت كما غمسها،

فأكل، وقال في نفسه: صبرتُ على الحرام حتى صارَ حلالاً!

وكان بعد ذلك يُحدِّثُ بالقصة، ويحثُّ الناس بها على الصَّبر!

قصة عظيمة نحتاج أن نقرأها بقلوبنا لا بعيوننا،

فإنَّ كل معرفة في العقل هي علم، ولكن كل معرفة بالقلب فهي إيمان،

ولم تكن القصة يوماً بمقدار ما تعرف، وإنما بمقدار ما تؤمن،

وإبليس بالمُناسبة من أعلم المخلوقات بالحلال والحرام!

نحتاج أن نؤمن أن الله سبحانه قد كتبَ الأرزاق والآجال للناس

قبل أن يُبصِروا نور الحياة،

وأن الإنسان مهما سعى فلن يبلغ غيرَ رزقه المكتوب له،

وهذا ليس تحريضاً على تركِ السعي،

على العكس تماماً، ولكنه سعي المؤمن الوقّاف عند الحلال والحرام،

لا سعي الحيوانات المفترسة التي تفتك بكل ما يمرُّ أمامها من فرائس!

وأن الإنسان مهما اتخذ من سُبُلِ السلامة فلن يعيش أكثر مما كُتب له،

وهذه ليست دعوة لترك الأخذ بالسلامة،

وإنما أن نؤمن يقيناً أنه ما منعَ حذرٌ من قدرا

كل ما حصلتَ عليه هو رزقكَ،

وإنك لو هربتَ منه لتبعكَ حتى يصل إليكَ،

حتى ما أُخذَ بالحرام، ولكن الإنسان لقلةِ إيمانه وأدبه مع الله يستعجل الحلال بالحرام،

ولو صبرَ على الحرام لجاءه الحلال لأنه بالأصل له!

تزوج «آلبرت آينشتاين» زوجته « ميليفا» عن حُب،

ومع مرور الأيام بدأ هذا الحُب يبهت شيئاً فشيئاً،

إلى أن تحوّل في نهاية المطاف إلى كراهية،

فقد وصل آينشتاين إلى مرحلة،

لم يكن فيها يطيق أن يرى وجهها، أو يسمع صوتها!

حتى أنه وقّع معها اتفاقاً مكتوباً على ورق،

أنْ لا تُكلمه ولا يُكلمها، ولا تتفاعل معه ولا يتفاعل معها،

وأن يعتبرا بعضيهما أشباحاً لا وجود لأحدهما في حياة الآخر،

وبعد مدة وصل بهما الأمر إلى الطلاق،

فدفع لها أموال جائزة نوبل كتسوية عن الطلاق!

نعم نجح آينشتاين في فك الكثير من ألغاز الكون،

ولا يختلف اثنان أنه كان عبقرياً جداً،

ولكن هذا العبقري لم يستطع أن يؤسس عائلة سعيدة!

ما أريدُ قوله:

لا تبحثوا عن النجاح، وبيوتكم مقابر!

تأسيس عائلة في كنف زوجٍ محب، وزوجةٍ محبة، وأولادٍ صالحين،

هو عمل بطولي لا يقل عن نظرية النسبية!

من الحكايات الأوروبيةِ الشعبيةِ أن إوزّةً رأث حصاناً،

فقالث له باستعلاء:

أنا أفضل منك، فكُل قُدراتك محصورة في بيئةٍ واحدة،

أما أنا فمُتعددة المواهب، أستطيعُ أن أمشي على الأرضِ مثلك،

ولي جناحان أستطيعُ بهما أن أطير، كذلك أنا أسبحُ في الماء،

أرأيتَ كم أنا فريدة وكم أنتَ ضئيلٌ ومحدود؟!

فقالَ لها الحصانُ:

صحيحٌ أنك تسكنين في ثلاث بيئاتٍ مختلفةٍ،

ولكنكِ لا تبرزين بشكلٍ مميزٍ في أيٍّ منها!

أنتِ تطيرين ولكن طيرانك ثقيل جداً وبلا رشاقة،

فلا يحقُّ لكِ أن تضعي نفسكِ في مرتبةِ الطيور!

وتستطيعين أن تسبحي على سطحِ المياهِ،

ولكنك عاجزة عن العيشِ فيها كالأسماك،

ولا تُحسنين تحصيل طعامك هناك!

حتى حين تمشين على الأرضِ بهذه الأقدامِ العريضةِ تبدين مُثيرةً للضحك!

أما أنا فإن كانت اليابسةُ بيئتي،

فإني جميلٌ في شكلي، قويٌ في بُنيتي،

رشيقٌ في حركتي، مُذهلٌ في سُرعتي،

وإنِّي أفضِّلُ أن أبقى محصوراً في مكانٍ واحد،

أنالُ فيه الإعجاب، على أن أكون إوزَّة مُضحكة في كُلِّ مكان!

على المرء أن يبحثَ له عن مجالٍ واحدٍ في الحياةِ يكونُ ضليعاً فيه،

لأنه خيرٌ للمرء أن يكونَ خبيراً في مجالٍ واحدٍ،

من أن يكونَ مُطَّلِعاً على عشرة مواضيع!

تشتيتُ القدراتِ سيجعلُ من الإنسانِ مُلِمَّاً،

أما حصرُها في مجالٍ واحدٍ سيصنعُ منه خبيراً،

ونحن نعيشُ في زمنِ الخبرةِ تُساوي وزنها ذهباً!

برأيي أن يحملَ الإنسانُ «الماجستير» في تخصُّصٍ مُعيّنٍ،

خيرٌ من أن يحملَ أكثر من «بكالوريوس» في أكثر من تخصُّص،

وأن يحملَ درجة دكتوراة فيه،

أفضل من أن يحصلَ على شهادتي «ماجستير» كل في تخصُّص!

أميلُ إلى أن يَمضي الإنسانُ كالسهم صُعوداً إلى الأمام،

لا أن يكون أُفقياً مُتشعّباً، لأنه بهذا سيكسبُ مساحة، ولكنه سيخسرُ مسافة!

كان خالد بن الوليد عسكرياً فذاً،

بينما كان حسّان بن ثابت شاعراً عبقرياً،

وعندما كان أبي بن كعب أقرأ الصحابة لكتابِ الله،

كان مُعاذ بن جبل أعلمهم بالحلالِ والحرام!

هذه الدنيا اختصاصٌ بالدرجةِ الأولى،

وهؤلاء تخلّدوا لأنهم بجانبِ صِدقِهم مع الله كانوا أهل اختصاصٍ في مجالاتِهم!

بينما النبيُّ ﷺ يُشرفُ،

على دفن شُهداء غزوة أُحد قال:

ادفنُوا عمرو بن الجموح، وعبد الله بن حرامٍ في قبرٍ واحدٍ،

فإنهما كانا مُتحابَين!

ما أجملها من رابطةٍ، وما أوثقه من عقد!

الحُب يبقى، يبقى طويلاً،

ما خلَّد أبا بكر شيئاً كقول ربنا:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

وكقول النبيِّ ﷺ:

«فهل أنتم تاركو لي صاحبي»!

ولو أجلتَ النَّظر في تاريخ العرب،

لوجدتَ المُحبين يأتون معاً في اسم واحد،

فهذا جميل بثينة، وذاك قيس ليلى، وذلك عروة عفراء،

أما المتباغضون فيطويهم التاريخ كأنهم ما كانوا!

بعد حروبٍ طويلةٍ استطاع «محمد شاه خوارزم»

أن يُشيِّدَ إمبراطوريةً شاسعة، تمتدُّ من تركيا إلى أفغانستان،

لها جيشٌ قويٌّ، وعاصمةٌ جميلةٌ جداً هي سمرقند!

وفي هذه الأثناء كان المُحارب الشاب «جنكيز خان»

قد تولّى السُلطة في منغوليا،

وجاء إلى «محمد شاه خوارزم» بأطنانٍ من الهدايا، طمعاً منه أن يفتحَ له،

طريقَ التجارةِ إلى الهند.

ولكن «محمد شاه خوارزم» عامل «جنكيز خان» بازدراء،

وقال له: من أنتَ أيها الهمجي حتى تُحدثني كَنِدٍّ مُساوٍ لي!

ولكن «جنكيز خان» لم ييأس،

وحاولَ مرةً أخرى أن يجدَ له مكاناً تحت جناح «محمد شاه»،

فأرسل قافلةً أخرى محملةً بالهدايا إليه،

وعرضَ عليه عرضه القديم مرّةً أخرى.

غضبَ «محمد شاه خوارزم» وقام بقطع رأس أحد

السفراء،

وحلقَ رؤوس الباقين، وأرسلهم إلى «جنكيز خان»،

الذي اعتبرَ أنَّ هذه إهانة لا يُمكن قبولها،

حتى وإن صدرتْ من السلطان القوي جداً!

فأرسلَ رسالةً إليه يقول فيها: لقد اخترتَ الحربَ، فليكُنْ لكَ ما اخترت!

فشنَّ عليه حرب عصاباتٍ على مدار سنوات،

أنهكَ له فيها جيشه،

وكان يحتل إمبراطورية «محمد شاه» مدينةً مدينةً،

إلى أن حاصرَ العاصمة سمرقند أخيراً،

فسقطتْ بيده، وهربَ «محمد شاه»، وتوفي في مكانٍ ما بعد عام،

وأصبحَ «جنكيز خان» ملكاً على كل ما كان أولاً بيد «محمد شاه خوارزم»!

للأسف إن الناس يصنعون أعداءً أكثر مما يصنعون أصدقاءً،

لسنا مطالبين أساساً أن نُوسّعَ دائرة صداقاتنا،

ولكن الحكمة تقتضي أن الشخص الذي لا أريده صديقاً

ليس بالضرورةِ أن أجعلَه عدواً!

لم يُرِدْ «جنكيز خان» أكثر من أن يكون تحت جناح

«محمد شاه خوارزم»،

وكانت الحنكةُ تقتضي أن يقبلَ بالعرض،

على الأقل في عالمِ السياسةِ من المُحبَّذ جداً أن يعثرَ الحاكم،

على من يقوم بالنيابة عنه في بعض الحروبِ والمهام،

كان يُمكن «لخوارزم» أن يجعلَ من «جنكيز خان» سيفاً يضربُ به،

أو عصا يهُشُّ بها،

ولكنه لعنجهيته صنعَ من «جنكيز خان» عدواً أزال له مُلكه!

وما يصحُّ في عالمِ السياسة يصحُّ في عالمِ الناسِ،

كُفُّوا عن صناعةِ الأعداء!

مرَّ النبيُّ ﷺ بعبد الله بن مسعود،

وهو حزينٌ، فقال له:

لا تُكثِرْ همَّكَ، ما يُقدَّرُ يكُنْ، وما تُرزقْ يأتِكَ!

كُلُّ ما أصابكَ، لم يكن بالإمكان تفاديه،

ولا يُغني حذرٌ عن قَدَرٍ!

فارضَ تسعَدْ، ولا تُحمِّلْ نفسكَ ما لا تُطيق،

لا تكُنْ أنتَ والدُّنيا على نفسِكَ!

ورزقُكَ لكَ، وأنتَ آخذه،

ولو هربتَ منه، لحُمِلَ إليكَ حتى عتبة بابكَ،

وما لم يكن لكَ فلستَ بآخذه،

ولو كان معك الإنس والجن والملائكة ظهيراً،

وما أجمل قول عمر بن الخطاب:

كل الخير في الرضى، فإن استطعتَ فارضَ،

وإن لم تستطِعْ فاصبِرْ!

روى ابن الجوزي في كتابه الماتعِ «أخبار الحمقى والمغفلين»،

أن الخليفة المهدي العباسي دخلَ يوماً بناءً،

وأمرَ أن يُخرَجَ كل من فيه،

وبقيَ هناك رجلان خَفِيا عن أعينِ الحرس،

ثم في وقتٍ لاحقٍ جِيءَ بهما إليه.

فقالَ للأول: من أنتَ؟

فقال: أنا، أنا، أنا.

فقالَ له: ويلكَ من أنتَ؟

فقال: لا أدري!

فقالَ له المهدي: ألكَ حاجة فنقضيها؟

قال: لا.

فقالَ له: اغربْ عني يا أحمق!

ثم رأى الثاني فاستنطقه، فأجابه بقلبٍ قوي ولسانٍ جريء.

فقال له: من أنتَ؟

فقال: رجلٌ من رجالِ دعوتك يا أمير المؤمنين!

فقالَ له: فما جاء بكَ إلى هنا؟

قال: جئتُ أنظُرُ في هذا البناء الحسن،

وأدعو لأمير المؤمنين أن يُعمره بطولِ العمر.

فقالَ له المهدي: ألكَ حاجة فنقضيها؟

فقال: نعم، خطبتُ ابنة عمٍ لي فردَّني أبوها، وقال: أنتَ فقيرا!

والناس يا مولاي يُحبون المال، وأنا بها شغوف!

فقالَ له الخليفة: قد أمرتُ لكَ بخمسين ألف درهم.

فقالَ الرجل: جعلني الله فداكَ يا أمير المؤمنين،

قد وصلتَ فأجزلتَ الصِّلة، ومننتَ فأعظمتَ المِنَّة،

فجعلَ الله باقي عُمرك أكثر من ماضيه، وآخرِ أيامك خيراً من أولها!

فقالَ المهدي: عقلُ المرء يجري على لسانه!

جاءَ الإسلامُ رحمةً للناس،

وعدَّ الجمع بين المُتحابين من جبرِ الخواطر، ومكارمِ الأخلاق،

لأن خالق الناس يعلمُ أنهم قلوب أول الأمر،

قبل أن يكونوا لحماً ودماً!

جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ وقالَ له:

يا رسول الله في حجري يتيمة،

وقد خطبها رجل معدم ورجل موسر،

وهي تهوى المعدم ونحن نهوى الموسر!

فقالَ له النبيُّ ﷺ: لا أرى للمُتحابين إلا النكاح!

فالله الله في قلوبِ المُتحابِّين،

لا تكسروا قلوبهم ما دامَ الجمع بينهما ممكناً،

فإن جبرَ الخواطرِ عبادة!

يقولُ عبد الله بن مسعود:

إنَّ العبدَ ليهُمّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى يُيَسَر له،

فينظرُ الله إليه، فيقولُ للملائكة:

اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار!

فيصرفه الله عنه، فيظلُّ يتشاءَمُ،

يقول: سبقَني فلان، ودهاني فلان،

وما هو إلا فضلُ الله عزَّ وجل!

يحمينا بطُرقٍ لا نفهمها!

ويمنعُ عنَّا ما نريدُ، ليعطينا ما هو أنفع،

وفي بعض الأخذ إبقاء،

ألا ترى أن الأطباء يبترون العضو الذي أصابه التلف،

ليبقى الجسدُ صالحاً للحياة،

وهذه كتلك، ولله المثل الأعلى،

وفي صيد الخاطر لابن الجوزيّ:

كان بعض السّلفُ يسألُ الله الغزو،

فيُصرفُ عنه، فيتسخَّط،

فأتاه آتٍ في المنام فقال له:

إنكَ إن غزوتَ أسِرتَ، وإن أسِرتَ تنصّرتَ!

في كتابه خُرافات يروي «روبرت ودزلي»،

أن صيّاداً كان يصطادُ السمكَ على ضفةِ نهرِ التايمز،

وأنه ألقى الطُّعم على نحوٍ فيه الكثير من التفنُّن،

فقد صنعَهُ على شكلِ ذُبابةٍ لإغراءِ الأسماك بأكله.

رأث سمكة سالمون صغيرةٌ الطُعم،

فلم تشُك للحظةٍ بكونه ذُبابة، وأرادث أن تنقضَّ عليه،

ولكن أمها قالث لها: لا تتسرّعي أكثرِ مما ينبغي يا صغيرتي،

حيث يُوجدُ احتمالٌ للخطر، بل خُذي وقتاً كافياً للتفكير،

نحن لا نعرف إن كانث هذه ذُبابة حقاً، أم مصيدة للعدو!

دعي أحداً آخر يقومُ بالتجربةِ قبلكِ،

فإن كانث ذُبابة فعلاً فقد تنجو بنفسها، فتهجمين أنتِ،

صحيحٌ أنه سيكون الهجوم الثاني،

وأنه إن لم يكُن ناجحاً، فسيكون بسلامٍ على الأقل!

وما كادت السمكة الأم تتمُّ كلامها،

حتى جاءث سمكةٌ شبوطٍ،

لم تشُك للحظة أن الشيء الذي أمامها هو ذبابة، فلمّا أكلته،

علقتْ في صنارةِ الصيادِ وهلكتْ!

قالتْ العربُ قديماً: في التأنّي السلامة وفي العجلةِ النّدامة!

على المرء أن يتريّثَ أحياناً،

لأن أغلب الأمور التي تكونُ مشجعة جداً إنما هي في الحقيقةِ فخ،

والغالبيةُ العُظمى من المشاريعِ التي كانت تَعِدُ المُستثمرين بربحٍ هائلٍ،

في فترةٍ قصيرةٍ إنما كانت عملية نصبٍ مدبرة،

إنهم يعرفون ضعف الإنسان، إنه يسيلُ لُعابه عند فكرةِ كسبٍ كبيرٍ في وقتٍ قصيرا!

فإذا كانت الأمور ضبابية، فتريّث قليلاً، كُنْ المُعتبِر ولا تكُن العِبرة!

على أن الحقَّ يُقال: بعضُ الميادينِ تحتاجُ إلى شجاعة،

ومن الجميلِ جداً أن يكون المرءُ فيها هو البادئ أولاً،

ويا لِحظِّ من كان البادئ في طريقِ الحق، فيدخلُ التاريخ من أوسعِ أبوابه!

وعلى سيرةِ البادئين فإنّ سعد بن أبي وقّاص أول من رمى بسهمٍ في سبيلِ الله!

وأول من سلَّ سيفاً في سبيلِ الله طلحة بن عُبيدِ الله!

وأول من جهرَ بالقرآنِ عبد الله بن مسعود!

وأول سفير في الإسلامِ مصعب بن عمير

وأول شهيدة في الإسلام سُمية أم عمار!

وأول فدائية في الإسلامِ أسماء بنت أبي بكر

فطوبى للأوائلِ في الحق!

قيل لإبراهيم المُزنيّ: إن فُلاناً يبغضُكَ!

فقال: ليس في قُربه أنس، ولا في بُعده وَحشة!

فلا تبحث عن مكانٍ لكَ في قلوب الجميع،

تكفيكَ القِلّة الصادقة!

ولا بُدَّ للإنسان من كارهٍ مهما بلغَ من الصلاح،

فحتى الأنبياء لم يُحبهم كل الناس!

ولا تحفل بالحاقدين، وتبحث في نفسكَ عن السبب،

للأسف أحياناً يكرهنا الآخرون لميزاتنا لا لِعيوبنا،

ومن ظنَّ أن يسلمَ من الجميع فهو واهم!

وفي الأثر، أن موسى عليه السَّلام، دعا ربه فقال:

ربِّ نجِّني من ألسنة الناس!

فقال له الله تعالى: يا موسى ذلك شيء لم أجعله لنفسي، فكيف أجعله لكَ؟!

في الطرق الحكمية لابن القيم،

أنّ رجلاً جاء إلى الخليفة العباسي المنصور،

وأخبره أنه خرج في تجارةٍ وكسب مالاً فأعطاه لزوجته لتحفظه،

ثم طلبه منها، فقالت إنه قد سُرِقَ،

وأنه نظر في البيت فلم يَرَ كسراً ولا خلعاً، ولا أثراً لِلِص!

فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟

فقال: من سنة

فقال له: أثيّبٌ أم بِكر؟

فقال: ثيّباً

فقال له: ألها ولد؟

قال: لا

فدعا المنصور بقارورة طيبٍ كانت له،

وقال للرجل: استعمل هذا فسيذهب بالهمّ الذي اعتراك!

فلما خرجَ من عنده، دعا المنصور بأربعةٍ من جنده،

وأمرهم أن يتفرقوا في الطُرُقات،

وأيما رجل وجدوا عليه أثر هذا العطر، يقبضوا عليه فوراً!

وخرج الرجل بالطيب، ووضعه في البيت،

فأهدته المرأة لرجلٍ كانت تحبه، فوضع منه،

فقبضَ عليه الجنود وجاؤوا به إلى المنصور!

فقال له المنصور: أين المال الذي أخذته من فلانة؟

فأقرّ واعترفَ على الفور، وذهبَ وأحضرَ المال.

فدعا المنصور صاحب المال وقال له:

إن رددتُ إليكَ مالكَ تحكمني في امرأتك؟

قال: نعم

فقال له: هذا مالك، قد طلّقتُ المرأة منك!

لا يدري المرءُ مما يعجبُ في هذه القصة،

من ذكاء المنصور ودهائه، فهذا والله فعل العباقرة!

أم من ستره على المرأة،

فهو لم يُخبر الزوج بحقيقة زوجته،

وإنما طلبَ أن يكون أمرها في يده،

فلما وافقَ الزوج على هذا، قام بتطليقها منه!

يُحِبُّ الله تعالى الستر على الأعراض وإن فرّطَ بها أهلها،

ومن سَتَرَ سُتِرَ، ومن تتبّعَ عورات الناس تتبّعَ الله عورته،

ومن عيَّرَ أحداً بمعصيةٍ في الغالب لا يموت حتى يقترف مثلها!

عندما زنى ماعزٌ رضي الله عنه، استشار صديقاً له من الأنصار،

فأشار عليه أن يذهب إلى النبيِّ ﷺ ليقيم عليه الحد،

وهكذا كان، فالحدود إذا وصلت للحاكم سقطت فيها الشفاعة!

ولكن النبيِّ ﷺ لَقِيَ ذاكَ الأنصاري بعد مُدَّةٍ، فقال له:

أما إنكَ لو سترته بثوبكَ كان خيراً لكَ!

أُصيبتْ عين قتادة بن النعمان يوم أُحد،

فأتى النبيَّ ﷺ وهي في يده،

فقال له: ما هذا يا قتادة؟

فقال: هذا ما ترى يا رسول الله!

فقال له: إن شئتَ صبرتَ ولكَ الجنّة،

وإن شئتَ رددتُها، ودعوتُ الله لكَ، فلم تفقِدْ منها شيئاً،

فقال: واللهِ يا رسول الله، إن الجنةَ لجزاء جزيل، وعطاء جليل،

ولكني رجلٌ مُبتلى بحب النساء،

وأخاف أن يقُلنَ أعور، فلا يُرِدنَني،

ولكن تردّها لي، وتسأل الله لي الجنّة،

فقال له: افعلْ يا قتادة!

فأخذها النبيُّ ﷺ بيده، فأعادها إلى موضعها!

الفكرة أنَّ المؤمن لا يُؤجر على وقوع البلاء،

وإنما على الصبر على البلاء إن وقع!

وكون الإنسان يكره الفقر، والمرض، والفقد، فهذه فِطرة،

ولا يوجد عاقل يتمنى هذه الأشياء طلباً للأجر،

وإنما نسألُ الله تعالى العافية دوماً،

أما إذا وقع البلاء، نصبرُ، ونحتسبُ، ونتأدبُ،

نحن الآن في حضرة قضاء الله وقدره!

يقولُ «هان في تزو» الفيلسوفُ الصيني،

الذي عاشَ في القرنِ الثالثِ قبل الميلاد:

كانَ في «صونغ» رجلٌ يحرثُ حقلاً في وسطه شجرة ضخمة،

وذاتَ مرةٍ اصطدمَ بالشجرةِ أرنبٌ بريٌّ،

كان يجري بسرعةٍ فدُقَّت عنقه ومات!

وفرحَ الفلاحُ بهذا العَشاءِ اللذيذِ السَّهل.

ومُنذُ تلكَ اللحظةِ ألقى محراثه جانباً،

وراحَ يُراقبُ الشجرة، وينتظرُ أن يصطدمَ بها أرنب آخر!

طالَ انتظاره، وتلفَ حقله بسببِ الإهمال،

ومع ذلك لم يحصلْ على أرنبٍ جديد،

وصارَ في النهايةِ موضع سخرية لأهلِ «صونغ» جميعاً،

حتى أنهم أسموه الرجلُ مُنتظرُ الأرنب!

ما يحدثُ مرةً واحدةً بالصدفة

لا يجب أن يُصبحَ قاعدة قابلة للتعميم!

بمعنى لو أنكَ في طريقكَ إلى عملكَ،

وجدتَ مبلغاً من المالِ مُلقى على الأرض،

وهذا المبلغُ يفوقُ ما تحصل عليه من أجرةِ يومك،

فهذا لا يعني أن تستقيلَ من عملك،

وتذهبَ كل يوم لتبحث في الطرقاتِ عن مالٍ ملقى على الأرض!

هذه الدُنيا دار أسباب، والعاقلُ يأخذُ بالسببِ المُستطاعِ ويجعل يقينه في الله،

ولكنَّ ترك الأسبابِ وعقد اليقين على الله هو سوء فهمٍ لسُنَّةِ اللهِ في الكون!

عندما أرادَ النبيُّ ﷺ أن يُهاجرَ،

اصطحبَ معه دليلاً يُرشدُهُ إلى الطريق،

ولو تركَ أحدٌ الأخذَ بالأسباب، مُتذرِّعاً بإيمانه ويقينه بالله،

لتركه النبيُّ ﷺ فلا أحد من البشريةِ له إيمانه ويقينه بربه!

ويوم غَزوة أُحُد لبسَ النبيُّ ﷺ درعين لا درعاً واحداً،

هو يعرفُ أنَّ الدروع لا تردُّ الموت لو حانتْ ساعةُ المرء،

ولكن الأخذ بالأسباب من تمامِ التوكُّلِ على الله وليس مُنافياً له!

أسوأ شعورٍ يمكن أن يعيشه الإنسان هو النّدم،

الندم الذي لا ينتجُ عن كون المرء سيئاً،

وإنما عن كونه جيداً أكثر مما ينبغي!

صدقني، أن تندم على نفسك هو شعور مرير جداً.

أن تندم لأنَّكَ تمسّكتَ أكثر مما يجب،

في حين كان عليكَ أن تُفلتَ يدكَ قبل هذا بكثير،

عن وضعكَ فاصلةً، حيث كان يجب أن تضعَ نقطةً!

عن مصافحتك يد، كان يجب أن تقطعها،

عن الحقيقة التي قيلت لك كثيراً ولكنك اعتبرتها زلة لسان،

عن تظاهرك بأنك لا ترى، حين كان كل شيءٍ ماثلاً أمامك،

عن غفرانك المرّة بعد المرّة أملاً أن تتغير الأمور،

أنت الذي كنتَ تعرفُ أن الشُفن المثقوبة لا تصلح للإبحار،

بربِّكَ، لِمَ ركبتَ كل هذه المُدّة فيها؟!

يروي «إيسوب» في كتابه «خُرافات»،

أنّ الخِراف كانت محميّة بشكلٍ تامٍ من كلابِ الحراسة،

ولم يكُنْ غيرها يمنعُ الذئاب من افتراسِ الخِرافِ على نحوِ ما تُريد!

اجتمعَ الذئابُ فيما بينهم،

وخلصوا أنه لا يُمكن لأنيابهم القاسية،

أن تبطشَ بلحمِ الخِرافِ اللذيذِ إلا إذا نحّت كلاب الحراسةِ جانباً،

وأنه لا بُد من حِيلةٍ ليتم لها ذلك!

أرسلت الذئابُ رسولاً إلى الخِراف ليقول لها:

لماذا تستمرُ العداوةُ بيننا إلى الأبد،

إنّ تلك الكلاب الشريرة هي السبب،

فهي لا تكف عن النباحِ في وجوهنا،

أبعدوها عنكم ولن تعودَ هُناك أي عقبة أمام الصداقةِ والسلام!

استمعت الخِرافُ إلى هذا الكلامِ المعسول،

ووقعَ في قلبها موقعَ القبول،

فقامت بإعفاءِ كلابِ الحراسةِ من عملها، وأبعدتها عن القطيع!

وفي اليومِ التالي كانت الذئابُ تنهشُ لحومَ الخِراف!

القصص والأمثالُ بالمعنى لا بالألفاظ!

كان لهذه الأمّة أيام مجدها حارسٌ أمينٌ مُخلصٌ هو هذا الدّين،

جعلها تقودُ ولا تُقاد، تُؤثّرُ ولا تتأثر،

تتقدمُ ولا تتقهقر، فأزاحَ أعداؤنا في لحظةِ ضعفٍ منا

هذا الحارس فسهلَ عليهم افتراسنا!

إنَّ هذا الحارس الأمين لم يُنحَّ مرةً واحدةً،

لقد هاجموه عضواً عضواً تحت مسمياتٍ برّاقة،

وعناوين ساحرة،

وما النية والقصد إلا قتل هذه الروح التي بدونها تُصبحُ الأمّة جسداً ميتاً،

تتلقّى الضربة تلو الضربة ولا تجرؤ أن ترفعَ يدها،

لتتفادى الضربة فضلاً عن أن تردها!

جاؤونا مرةً ببدعةِ تغييرِ المناهجِ لأنها تُربي على العنف!

وجاؤونا مرةً أخرى بتنقيحِ البُخاري وكتبِ الصِحاح!

وأخذونا إلى مؤتمراتِ حوارِ الأديان،

ثم انتهى الأمرُ بمطالبتهم بتنحيةِ آياتِ الحاكمية والجهاد!

ثم أعملوا معاولَ هدمهم في عمادِ المجتمعِ وهو الأسرة،

أغروا المرأة بالتحررِ وكأنها أَمَة مُستعبدة،

وهي لم تُوَقَّر في دِينٍ ولا حضارةٍ كما في الإسلام،

وهم لا يُريدون حُريتها إنما حُرية الوصول إليها!

دَعْكُمْ من كلامهم المعسول في المؤتمراتِ والمُناصحاتِ،

وخُذوا الحقيقة من أفواهِ مُفكّريهم. يقولُ «توماسبين» في كتابه «عصر العقل»:

الآن تغيرَ الحال، وصارَ المسلمون في قبضةِ أيدينا،

ولكن ما حدثَ مرة يمكن أن يحدثَ مرة أخرى،

إن الشعلة التي أشعلها محمد - ﷺ -

في قلوبِ أتباعه هي شعلة غير قابلة للانطفاء!

إنهم يعرفون جيداً أننا أُمَّة تمرضُ ولا تموت،

كل ما يفعلونه الآن أن يُطيلوا فترة المرض فقط!

يكسرُ المرءُ كلّ قواعده،

عندما يلتقي بالشخص الذي يراه استثناءً،

الأمور لم تتعلق يوماً بالظروف،

الظُّروف مُجرّد حُجّة!

من كان راغباً في الوصول إليك سيجد طريقاً،

ومن لم يكن راغباً سيغلق الطُّرق المفتوحة،

ولكن مشكلة بعض الناس أنهم يُعانون من «حُبّ التملك»،

فلا هم يريدونك لأنفسهم،

ولا هم يتركوكَ لغيرهم،

مصابون بمرضِ تجميعِ الأحبة حولهم،

البعض يُحبّون أن يشعروا أنهم مرغوبون،

أما ثمن إرواء هذه الرغبة، فلا يهم، ولو كان قلبكَ!

كانَ «عيسى بن موسى» وزيراً للخليفةِ «المنصور»،

وكانَ يُحِبُّ زوجته حباً شديداً،

وقالَ لها يوماً: أنتِ طالق إن لم تكُوني أجمل من القمر!

فقامتْ واحتجبتْ عنه، وقالتْ له: لقد طلّقتني!

فباتَ حزيناً، ولمَّا كانَ الصباح جاءَ إلى المنصور،

وأخبرَهُ بالخبر، وقالَ له: يا أمير المؤمنين،

إن تمَّ طلاقها كان الموتُ أحب إليَّ من الحياة!

فأحضرَ المنصورُ الفُقهاءَ، واستفتاهم، فقالوا: قد طلُقَتْ!

إلا رجلاً من أصحابِ أبي حنيفة بقيَ ساكتاً،

فقالَ له المنصور: ما لكَ لا تتكلم؟

فقالَ له: يا أمير المؤمنين، لم تُطلق، أليسَ الله قال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؟!

فلا شيء أجمل من الإنسان!

فقالَ المنصور لوزيره: لقد فرَّجَ اللهُ عنكَ!

وكتبَ إلى زوجته يقولُ: أطيعي زوجكِ فما طلّقكِ!

يبدو أن المُزاح والاستهتار بكلمةِ الطلاقِ،

ليستْ ظاهرة حديثة، وإنَّما قديمة،

وليستْ حِكراً على العامّةِ فقط، وإنَّما على الخاصةِ

كذلك!

فإن كانَ عيسى بن موسى على عراقته في الفهمِ والحُكم،

والكياسةِ والسياسةِ قد وقعَ فيه،

فلا غرابة أن نجدَهُ مُنتشراً اليوم بين الناسِ على شكلٍ مُثيرٍ للاشمئزاز!

والشيءُ بالشيءِ يُذكر، والكلامُ يستدعي بعضه،

دعاني مرةً صديقٌ لي لقضاءِ ليلةٍ في البَرّ في مخيمٍ لهم،

فذهبت، وكانت تلك أول مرةٍ أعرفُ فيها الصحراء في الليل،

مكانٌ مُذهلٌ يدعو إلى السكينة،

وكانت تلكَ الليلة واحدة من أجملِ ليالي العُمر،

لم يُنَغِّصها عليّ إلا مجموعة من الرجالِ من أقاربِ صديقي ومعارفهم،

جلسوا يلعبون «بالكوتشينة/أوراق اللعب»،

وإني أقسِمُ باللهِ غير حانثٍ،

أن كلمةَ الطلاقِ قِيلت في ساعةٍ واحدةٍ أكثر من عشرِ مرات!

يا أخي أنتَ وصديقك تلعبان، ما شأن تلك المَستورة في بيتها بلعبكم هذا؟!

الزواجُ رابطٌ مُقدّسٌ يجب أن يُراعى،

والطلاقُ حلالٌ لا شيء فيه،

أما أن يُجعلَ هذا الرباط المُقدس ألعوبةً،

وهذا الحلال علكةٌ في فمِ الزوج،

لا يدري أبقيث امرأته على ذمته أم لا،

فهذا أقل ما يُقال عنه عبث واستهتار!

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال:

ثلاثٌ جِدُّهنَّ جدٌّ، وهزلُهنَّ جِدٌّ: النكاح، والطلاق، والرَّجعة!

فاتقوا الله في نسائكم وفي أنفسكم!

لمَّا حضرتْ «سعيد بن العاص» الوفاة، قالَ لأولاده:

يا بَنِيَّ لا تقطعوا إخواني بعدي،

وأجْروا عليهم ما كُنتُ أُجري، واصنعوا بِهم ما كنتُ أصنع،

ولا تُلجِئوهم للطلب، فإنَّ الرجل إذا طلبَ الحاجة اضطربَت أركانه،

وارتعدتْ فرائصه، وكَلَّ لسانه، وبدا الكلام في وجهه!

اكفوهم مؤونةَ الطلبِ بالعطيةِ قبلَ المسألة،

فإني لا أجدُ لوجه الرجل يأتي يتقلقلُ على فراشه ذاكراً موضعاً لحاجته،

فعدا بها عليكم، لا أرى قضاء حاجته عوضاً من بذلِ وجهه،

فبادِروهم بقضاءِ حوائجِهم قبل أن يسبقوكم إليها بالمسألة!

وروى «الأبشيهي» في رائعتِهِ «المستطرف في كل فن مستظرف»:

أنَّ رجلاً قصدَ صديقاً له في حاجة، فدقَّ عليهِ الباب، فقامَ وفتحَ له.

فقالَ له: السلامُ عليكَ، عليَّ دَينٌ كذا وكذا!

فدخلَ داره مُسرِعاً وأعطاه المال، ثم عادَ ودخلَ بيته وجعلَ يبكي!

فقالت له زوجته: هلا اعتذرتَ منه حينَ شقَّت عليك الإجابة؟!

فقالَ لها: ما لهذا أبكي، وإنّما أبكي لأنّي لم أتفقد حاله حتى احتاجَ أن يسألني!

بعضُ الناسِ نُفوسهم عزيزة،

ولو ماتوا من الجوعِ ما سألوا أحداً رغيفَ خُبز،

وفيهم قالَ ربنا تعالى: ﴿... يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾!

فكونوا لمّاحين، وتحسَّسُوا مواضع الحاجةِ عند أحبابكم،

ولا تُلجِئوهم إلى الطلب، فإنَّ الناس نهاية المطاف كرامات،

وحفظُ كرامة الإنسانِ كحفظِ دمه،

فلا تُستطاب الحياة حين يبذل فيها المرء ماء وجهه بالطلب!

وما عُبِدَ الله تعالى بشيءٍ أحب إليه من جبرِ الخواطر،

وإنّ السؤال يكسرُ الخاطر، ويفطرُ القلب،

فهنيئاً لمن عرفَ أنّ للعطاءِ أدباً فَلَزِمَهُ،

وأنّ للوجوهِ ماءً فصانها،

وأنّ للناسِ كراماتٍ فراعاها،

وأنّ للخواطرِ انكساراً فجبرها!

لطالما لفتني في الحديثِ النبويِّ الشريفِ عن الرجلِ الذي سقى كلباً،

فشكرَ الله فأدخله الجنة،

قوله: لقد بلغَ بهذا الكلب ما بلغَ بي من العطش!

كنتُ دوماً أرى فيه ذكاء إدراك الحاجةِ عندَ الآخرين،

هذا وهو كلب لا تدخل الملائكة بيتاً هو فيه،

فكيفَ بالمُسلمِ الذي يضعُ جبينهُ على الأرض مُردّداً: سُبحان ربي الأعلى؟!

قِيل للأصمعيّ: لماذا لا تَقول الشّعر؟

فقالَ: الذي أُريده لا يُواتيني، والذي يُواتيني لا أُريده،

أنا كالمِسَنّ أشحذُ ولا أقطع!

ويُقالُ أنّ القول للخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علمِ العَروض،

وإنْ صحّ هذا فإنه أعجب!

الرجلُ الذي فكّ طلاسمَ الأوزان، وكشفَ قانونَ موسيقاها،

ما كان يقرضُ الشعر!

ما أريدُ قوله أنّ الله تعالى إنما يفتحُ على عبده باباً من أبوابِ العلم،

ويُغلقُ عليه آخر،

ذلك لأنّ العلوم والمواهب هي أرزاق كالخبزِ تماماً!

ومن أعجبِ ما قرأتُ في هذا الباب،

شيءٌ في ترجمةِ الإمامِ الذهبيّ في سِيَرِ أعلامِ النّبلاءِ لسيبويه،

حيثُ قالَ عنه:

كانَ مع فرطِ ذكائه وعبقريته فيه حُبسة في لسانه، وانطلاقة في قلمه!

تخيَّلوا معي هذا المشهد،

سيبويه معجزةُ النَّحوِ العربي،

وصاحبُ الكتابِ الشهيرِ «الكتاب» الذي كان النُّحاةُ يُسمونه قرآن النَّحو،

كانَ إذا كتبَ على الورقِ انسالَ قلمه،

كأنه الغيم استدبَرَتْها الريحُ لشدةِ تمكُّنه وعلمه،

ولكنه إذا أرادَ أن يُعبِّرَ شفاهاً لم يُطاوعه لسانه كما يُطاوعه قلمه!

وكانَ أميرُ الشعراء أحمد شوقي لا يُحسنُ إلقاء قصائده،

وكان يدفعُ بها إلى من يُلقيها عنه!

الرجلُ الذي اعترفَ الشعراء بشعره، حتى بايعوه بإمارته،

يوم قالَ له حافظ إبراهيم:

أمير القوافي قد أتيت مُبايِعاً

وهذي وفود الشرق قد بايعث معي

لم يكُن يُجيد إلقاء شعره،

إلى هذه الدرجةِ يفتحُ الله على عبدٍ باباً، ويُغلقُ له آخر!

فانظُرْ إلى الباب الذي فُتِحَ لك، ادخله من مصراعيه،

وتوغَّلْ فيه عميقاً، أما إذا ما أُغلقَ في وجهكَ فلا تُطِل

التأسف عليه،

هي أرزاقٌ يا صديقي، والرضى فيها مطلب!

التقى «الفُضيل بن عياض» «بعبدِ الله بن المُبارك»

على بابِ بني شيبة في الحرمِ المكي.

فقالَ ابنُ المُبارك للفُضيل: يا أبا علي أدخلْ بنا المسجد حتى نتذاكر.

فقالَ له الفُضيل: إذا دخلنا المسجد أليسَ تُريدُ أن تُحدِّثني بغريبٍ ما عندك،

وأُحدِّثك بغريبِ ما عندي من العلم؟

فقالَ: بلى.

فقالَ له: فأيّ شيءٍ من الإخلاصِ يبقى إن تزيَّنتَ لي وتزيَّنتُ لك؟

فقالَ له ابن المُبارك: أحييتني أحياكَ الله

فانصرفا ولم يدخلا المسجد!

كانَ الأوائلُ يُخفون أجمل عباداتهم،

لكي تبقى بينهم وبين الله، مخافة أن يُداخلَ أنفسهم العُجب،

وتطلبَ الثناء من الناس، فتفسدُ تلك العبادة!

ثلاثون سنة وزين العابدين علي بن الحُسين،

يحملُ الصدقاتِ والطعامَ ليلاً على ظهره إلى بيوتِ الفقراءِ،

دون أن يعلمَ بذلكَ أحد،

ولما ماتَ، وغسَّلوه وجدوا على ظهرِهِ أثرَ حملِ الأكياس،

وافتقدَ الفُقراءُ ما كان يأتيهم، فعلموا أنه صاحب الصَّدقات!

وصامَ داود بن هند أربعين سنةً دون أن يدري به أهله،

كانتْ زوجته تُعِدُّ له غداءه، وتحسبُهُ على غيرِ صيام،

فيمضي إلى دكانهِ في السوق، ويتصدَّقُ به على الفقراء،

فإذا عادَ مساءً إلى منزلِهِ أكلَ مع أهله،

يحسبونه يتعشَّى وما هو إلا طعام إفطاره.

حدَّثَ بهذا الذَّهبيُّ في سِيَرِ أعلامِ النبلاء!

الأصلُ أن يُخفيَ المرءُ حسناتِهِ ما استطاعَ كما يُخفي سيئاته،

لأنه لا شيء أحب إلى اللهِ من الخبايا الصالحة،

لأنها أُريدَ بها وجهه سبحانه،

ثم بعد ذلك الأمرُ له من بعد كما هو من قبل،

وإن شاءَ أظهركَ وإن شاءَ أخفاكَ، والأجرُ واحدا

ولا تخفْ على حظِّك، يكفيكَ أن اللهَ إذا أحبك، نادى:

يا جبريل إني أُحبُّ فلاناً فأحبِبْه،

ثم يُنادي جِبريل في الملائكةِ إن الله يُحبُّ فلاناً فأحبوه،

ثم يُوضَعُ لكَ القبول في الأرض!

ولله در أحمد بن حنبل، كانَ يدعو: اللهُمَّ أمِتني دون أن يعرِفَ بي أحد من خلقكَ!

فمات ولا يجهله أحد!

روى ابن القيّم في رائعته الجواب الكافي،

أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة،

وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة،

فصعد يوماً منارة المسجد على عادته ليؤذن،

وكان تحت المنارة دار لنصراني، فنظر إليها،

فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها،

فتركَ الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها،

فقالت له: ما شأنك، وما تريد؟

فقال: أريدكِ!

قالت: لماذا؟

فقال: لقد سلبتِ عقلي، وأخذتِ بمجامع قلبي!

فقالت: لا أجيبك إلى ريبة أبداً.

فقال: أتزوجك!

فقالت: أنتَ مسلم وأنا نصرانية. وأبي لن يزوجني منك!

فقال: أترك الإسلام وأتنصّر!

فقالت: إنْ فعلتَ أتزوجْ منك.

فتركَ الإسلام وتنصّرَ، وعُقِدَ له عليها، وأقام معها في الدار،

فلما كان المساء صعد إلى سطح الدار فسقط ومات،

فلم يَفُزْ بها وضاع منه دينه!

شخصياً أؤمن أن الخواتيم ميراث السوابق!

وأن الله تعالى أعدل من أن يرى عبده قد أفنى عمره في طلب رضاه،

ثم يبتليه بمعصية ويقبضه عليها!

غير أن الذي ظاهره الصلاح طوال عمره، ثم ماتَ على معصية،

فهذا رأينا نحن حاله، ورأى الله تعالى شيئاً في قلبه لم يكن يُظهره لنا،

فقبضه الله تعالى على ما كان في قلبه!

نعم نخاف الخاتمة السيئة، ونسعى لعدم الوقوع في المعاصي،

ونتوب فوراً إذا اقترفناها،

ولكننا نقرن هذا الخوف بحسن الظن بالله،

وأنه أرحم وأعدل من أن يرى القلوب تسعى في رضاه،

ثم يُميث أصحابها على غير سعيها!

وإن الحديث النبوي الشريف،

أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة،

حتى ما يكون بينه وبينها إلا مقدار ذراع،

فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها،

كلمة مفصلية في رواية «فيما يُرى للناس»!

فالإنسان مهما تدثَّرَ بعباءة الصلاح، وأخفى ما في قلبه عن الناس،

فحاله لا يخفى على الله، فالله تعالى لا يرانا من أعلى فحسب،

وإنما يرانا من الداخل!

على أنه يجب أن يُعلم أن حسن الخاتمة،

ليس حكراً على من ماتَ ساجداً أو صائماً،

فالنبيُّ ﷺ ماتَ في حجرِ عائشة،

وأبو بكر ماتَ على فراشه،

وأبو عبيدة مات بالطاعون!

حسن الخاتمة أن تموتَ ولا مظالم للناس عندكَ!

أن تموتَ وقد صمتَ شهركَ، وصليتَ فرضكَ،

ووصلتَ رحمكَ، وكففتَ أذاكَ عن الناس!

اشترى أحد الأثرياء بستاناً،

وجعل عليه خادماً له يُقال له «مبارك»،

وأقام مبارك في البستان زمناً يحرسه، ويرعاه،

ويهتم بكل صغيرة وكبيرة فيه،

كأنه صاحب البستان، لا مجرد عامل فيه!

وجاء صاحب البستان أخيراً ليتفقده،

فرأى ثمار الرمان فاشتهاها،

فطلب من خادمه مبارك أن يأتيه ببعض الرمان الحلو،

فلما جاءه به وجده حامضاً.

فقال له: هذا رمان حامض، هاتِ لي من الحلو!

فعاد مبارك يحمل الرمان إلى سيده من جديد، فإذا هو حامض مجدداً!

فغضبَ منه، وقال له: أما تعرف الرمان الحلو من الحامض في هذا البستان؟!

فقال له مبارك: لا!

فقال له: وكيف ذلك؟!

فقال لسيده: لأني ما أكلتُ منه شيئاً حتى أعرفه!

فقال له: ولِمَ لا تأكل؟

فقال لسيده: لأنك ما أذِنْتَ لي!

وتفحّص السيد حال خادمه، وسأل عنه، وتحرى عن الأمر،

فإذا هو صادق فيما قال، فعظُمَ في عينه، وزوَّجه ابنته،

فخرجَ من هذا الزواج المبارك، عالم جليل مبارك،

واحد من أعلام المسلمين على مر الدهر، هو عبد الله بن المبارك!

لا شكَّ أن الله تعالى يُخرجُ الحيَّ من الميت، حقيقةً ومجازاً،

بمعنى أنه يُخرج من صلب المؤمن كافراً، ومن صلب الكافر مؤمناً،

وقد جاء إبراهيم من صلب آزر على أصح الأقوال أنه أبوه،

وجاء ابن نوحٍ كافراً وهو من صُلب شيخ المرسلين!

الأمر ليس وراثة حتمية،

ولا قاعدة ثابتة أن يأتي المؤمن من المؤمن والكافر من الكافر،

ولكن يمكن القول أنها الأصل والقاعدة، وأن غيرها شواذ قليل!

الأولاد في أغلب الأحوال غِراس، ونحن نحصد ما نغرسه،

وقلما نُربي ولا نحصد أثر تربيتنا،

وكذلك قلما نُهمل ولا نتجرع أثر هذا الإهمال حيث لا ينفع الندم!

عظيم هو هذا الثري في القصة وفقيه،

لقد ائتمن عاملاً بسيطاً على ابنته لأنه علمَ،

أنَّ من لا يخون الله في ثمرة رمان،

لن يخونه في عرض امرأة،

وهذا الفهم، ووضع الأمانة موضعها أثمر لنا عبد الله بن المبارك فقيه زمانه،

ونجماً لا يخبو على مر الأزمنة!

البنات لسنَ سلعاً للبيع يُعطين لمن يدفعُ مهراً أكثر،

البنات أمانات يجب أن تُؤدى لأهلها،

فمن وضعهنَّ عند من يرجو صلاحه فقد أدى الأمانة،

ومن دفعهنَّ لأول خاطب دون بحثٍ عن دِينٍ وخُلق فقد خان الأمانة!

البنات ضيوف في بيوتنا ما يلبثنَ أن يرحلنَ فلا تستعجلوا رحيل ضيوفكم،

ولا تُفرطوا فيهن إلا لمن يحفظهنَّ!

روى «ابن القيم» في كتابه «الطرق الحكمية»،

أنه جاءت امرأةٌ إلى عُمر بن الخطاب فشكرت زوجها عنده،

وقالت: هو من خيرِ أهلِ الدُّنيا،

يقوم الليل حتى الصباح، ويصوم النهار حتى يُمسي!

ثم أدركها الحياءُ فسكتتْ.

فقال لها عُمر: جزاكِ الله خيراً، فقد أحسنتِ الثناء!

فلمَّا مضت، قال كعب بن سور: يا أمير المؤمنين، لقد أبلغتْ في الشكوى إليك!

فقال له عُمر: وما اشتكتْ؟

فقال: زوجها

فقال عُمر: عليَّ بهما

فلما حضر قال عُمر لكعب: اقضِ بينهما

فقال له: أأقضي بين يديك يا أمير المؤمنين؟

فقال له عُمر: اقضِ، فقد فطنتَ لِما لَم أفطنْ له.

فقال كعب للزوج: إنَّ الله يقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾.

صُم ثلاثة أيام، وأفطِر عندها يوماً، وقُم ثلاث ليالٍ، وبِت عندها ليلة!

فقال عُمر: هذا أعجبُ إليَّ من الأول!

وبعثه قاضياً لأهلِ البَصرة!

في موقف ما قد لا ينتبه لتفاصيله أذكى الناس،

وينتبه إليه من هو دونه فِطنةً،

فهذا العبقريُّ عُمر لم ينتبه لما انتبه إليه كعب!

نحن أمة التواضع، يُكملُ بعضنا بعضاً،

ولا نرى النزول على الحق الذي رآه غيرنا منقصة لنا،

على العكس تماماً نفرحُ أنَّ غيرنا يرى الحقَّ أيضاً ويحثنا عليه!

هذا الدين دين الوسطية والاتِّزان،

لا غلو ولا تفريط، لا رهبانية ولا انجرار وراء الغرائز!

لا اعتزال الدنيا ولا اللهث المحموم وراءها!

لا جمع المال كأنه الشيء الوحيد الذي نعيش له،

ولا تركه بالمطلق فهو عجلة الحياة، وحافظ ماء الوجه عن السؤال!

لا انغماس في العمل إلى درجة إهمال النفس والزوجة والأولاد،

ولا البطالة التي تجعل من الإنسان عالة!

لا التشدد والتكفير، ولا التفريط والانحلال!

وضع كل شيء موضعه، وإعطاء كل إنسان حقه اسمه الحكمة،

ومن يؤتاها فقد أوتيَ خيراً كثيراً!

في كتابه «الخرافات المختارة» يُحدِّثنا «لافونتين»،

عن أول رَجُلٍ رأى الجَمَلَ فهربَ مذعوراً منه.

بينما تجرَّأ الثاني على الاقترابِ منه ولكن على مسافة،

أما الثالث فوضعَ رسناً حول رقبته واقتادَه!

ذلك أن الإلفة الرافعة للكلفة تجعلُ كل الأشياء في هذا الوجود أليفة،

لأنَّ ما يبدو رهيباً وغريباً يُصبحُ عادياً تماماً

عندما تُتاحُ لأعيننا بُرهة من الزمن للتكيُّف!

وبما أني أتحدثُ في هذا الموضوع،

فقد سمعتُ عن حُرَّاسٍ كانوا يتخذون مواقعهم على الشاطئ،

فلمحوا شيئاً طافياً من بعيد،

فلم يستطيعوا أن يُقاوموا صرخةً من حناجرهم:

شراع، شراع، سفينة حربية قوية!

وبعد خمس دقائق صارت في أعينهم قارباً صغيراً لنَقْلِ الناس والبريد،

ثم زورقاً من خشبٍ صنعه أطفال،

وأخيراً تبيَّن لهم أنها لم تكن غير مجموعة من العِصِيّ الطافيةِ على وجهِ الماء!

هناك مقولة طريفة «لدوستويفسكي»

يُمكنُ الاتكاء عليها لشرحِ الفكرةِ التي أوردَها «لافونتين»:

أسهل طريقة لنسيانِ امرأة تُحبها هي أن تتزوجها، غير ذلك ستبقى تحبها!

الفكرةُ أن الأشياء من بعيدٍ يبدو لها هالة تأخذُ بالألباب،

وتجعلنا نرسم لها صورة مثالية،

أما القرب الزائد منها فيُظهرها على حقيقتها!

القمرُ من الأرضِ يبدو ساحراً وخلاباً،

شيءٌ معلّقٌ في السماءِ بأناقة، مُضيءٌ بحنان،

ويُمكنُ النظر إليه دون أي أذى للعيون،

حتى أنّ الناس من شدةِ افتتانهم بجماله يُشبهون أحبابهم به!

ولكن القمر من قريبٍ ما هو إلا جرم سماوي ميت لا حياة فيه،

مكان أجرد ليس فيه إلا الحجارة!

وهكذا الناس!

نحن ننظرُ إلى حياةِ المشاهيرِ والنجوم، الأثرياء والساسة،

من الزاوية التي يُرينا إياها الإعلام فقط!

الجانبُ المشرقُ والمثالي الذي ينقصنا نحن البشر العاديين!

ولكن صدّقوني لو أُتيحَت لكم فرصة معاشرتهم عن قرب،

فستتغيرُ النظرة كثيراً،

وستصبحُ نظرات الإعجاب نظرات اشمئزاز ربما!

أو على الأقل ستندثر هذه الهالة المُحيطة بهم!

ستجدون دائم الابتسام في صوره ومقابلاته نكدياً،

والرومانسي الذي تحلمُ به الفتياتِ لا تُطيقه زوجته

من شدةِ عجرفتِهِ وإهمالِهِ لها!

والتي تتبعون أخبارها من المشاهير لو عشتم معها أسبوعاً

فلن تُطيقوا بعد ذلك النظر في وجهها دقيقة!

لا تُصدقوا كل ما ترونه،

من النادرِ أن يظهرَ من بعيدٍ كل المشهد،

خلف الحكاية حكاية أُخرى، وفي داخل القصةِ قصة مختلفة تماماً،

إنهم مثلنا تماماً لهم عيوبهم، لا يُطاقون أحياناً، أو ربما دائماً!

في كتابه «حكايات وخُرافات شعبية أرمينيّة»

يروي «شارلي داونينغ» الحكاية التالية:

كان لأرمينيا ملكٌ له طبعٌ غريب، وبحاجةٍ دوماً إلى شيءٍ جديدٍ يُسليه!

فأرسلَ رُسلَهِ في أنحاءِ البلاد ليُنادوا في الناس:

اسمعوا، أيما رجل منكم يستطيعُ أن يُثبتَ أنه أفظع كذّاب في أرمينيا،

فسوف يتلقّى تفاحةً مصنوعةً من الذهبِ الخالصِ من يَدَي صاحبِ الجلالة!

بدأ الناس يتوافدون إلى القصرِ من كلّ أنحاءِ البلاد،

وروى كل واحدٍ منهم قصته،

ولكن الملك بحكمِ خِبرته الطويلة، وسِنه الكبيرة،

كانَ قد سمعَ كل الأكاذيب من قبل،

حتى بدأ يشعرُ بالمللِ إلى درجةِ أنه كادَ أن يُصدِرَ أمراً

بوقفِ المُسابقةِ دونَ إعلانِ فائزا!

عندَ ذلك دخلَ عليه فلّاحٌ فقيرٌ يحملُ تحت ذراعه إبريقاً من الفخار.

قالَ له الملك: ماذا تريدُ أيُها الفلّاح الطيِّب؟

فقالَ له الفلاح: سيدي الملك، كيف نسيتني،

أنتَ مدينٌ لي بإناءٍ من الذهب، وقد جئتُ للحصولِ عليه!

فقالَ له الملك: يا لكَ من كذّاب، أنا لا أعرفك، ولم أركَ من قبل،

فضلاً على أن أكونَ مديناً لكَ بشيءٍ!

عندها قالَ له الفلاح: ما دمتَ قد اعترفتَ أني كذّاب، فأعطِني التفاحة الذهبية إذاً!

أرادَ الملك أن يتملّص، فقالَ للفلاح: لا، لا، لستَ كذاباً!

فقالَ له: إذاً أعطِني إناءَ الذهبِ الذي لي عليكَ!

عندها وجدَ الملكُ نفسَه في مأزقٍ،

ولم يجدْ أمامه من خيارٍ إلا أن يُعلنَ فوزَ الفلاحِ بمسابقةِ الكذابين،

وأعطاه التفاحة الذهبية!

أحياناً اللعبُ ضمن القانونِ السائدِ لا يُوصِل إلى نتيجة،

والطريقُ الوحيدُ للفوزِ هو في تغييرِ قواعدِ اللعبة!

خسر كلُّ المتسابقين في مسابقةِ الملكِ لأنهم كانوا يلعبون بشروطه،

والتي كانت أن يسردوا عليه قصةً أو حدثاً،

أما الفلّاح ففازَ لأنه غيّر قواعدَ اللعبة،

لم يدخلْ على الملكِ بقصةٍ يسهلُ عليه أن يقولَ أنه

يعرفها،

وأنَّ هذا موقف كذب قد سبقَ ومرَّ عليه،

وإنما لجأ إلى موقفٍ عمليٍ غير مسبوق أدَّى إلى فوزه!

تقولُ الحكاية:

غضبَ أحدُ الملوكِ على وزيرٍ عنده وقررَ أن يُعدمَهُ،

وتدخَّلَ الأعيانُ لدى الملك، فخشيَ إن ردَّهم أن تحدثَ مشكلة،

فعمدَ إلى الحِيلة، وقالَ لهم: سأكتبُ ورقتين،

واحدة يُقتل، والثانية يُطلق، وليختر الوزير مصيره!

ولكن الملك كتبَ في كِلتا الورقتين يُقتل!

وكان الوزيرُ داهية، فعندما حانَ اليوم الموعود،

وطلبَ منه الملك أن يختارَ ورقة،

كان يعرفُ أن كِلتا الورقتين يُقتل!

فأمسكَ ورقةً وقالَ لقد اخترتُ هذه،

وقامَ بابتلاعها دون أن يقرأ ما فيها،

وقال: افتحوا الورقة الثانية لنرى ما فيها، فهي عكس ما اخترتُه!

هذا هو تغييرُ قواعدِ اللعبة!

قالَ الحضرميُّ: أقمتُ مرةً بقُرطبة، ولازمتُ سوقَ كتبها مرةً،

أترقبُ فيه وقوع كتابٍ كانَ لي بطلبه اعتناء،

إلى أن رأيته بخطٍ جميل، وتفسيرٍ مليح،

ففرحتُ به أشد الفرح، وجعلتُ أزيدُ في ثمنه،

فيرجعُ إليّ المُنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغَ فوق حدّه!

فقلتُ له: ما هذا؟ أرني من يزيدُ في هذا الكتاب حتى بلغه ما لا يساوي!

فأراني شخصاً عليه ثياب الرئاسة، فدنوتُ منه،

وقلتُ له: أعزَّ الله سيدنا الفقيه،

إن كانَ لكَ غرض في هذا الكتابِ تركته لكَ،

فقد بلغتْ به الزيادة بيننا فوق حدّه.

فقالَ لي: لستُ بفقيه، ولا أدري بما في الكتاب،

ولكني أقمتُ خزانة كتبٍ لأتجمل بها بين أعيانِ البلد،

وبقيَ فيها موضعٌ يسعُ هذا الكتاب،

فلمّا رأيته حسن الخط، جيد التجليد، استحسنتُهُ،

ولم أبالِ بما أزيد فيه، والحمد للهِ على ما أنعمَ به من الرزقِ فهو كثيرا!

فقلتُ له: سُبحان الله، قد يُعطي الجوزَ لمن لا أسنان له!

قد كنتُ قبل اليوم أحسبُ أن التباهي الثقافي وليد هذا العصر،

فإذا به قديم جداً، وأن الناسَ هم الناس في كلِ عصر، تتغيرُ الأسماء فقط!

ما أكثر أدعياء الثقافة،

قد يشتري أحدهم كُتباً، ويصورها مع فنجان قهوة،

وهو لا يدري ما في داخلِ الكتب،

ولكن هذا «بريستيج اجتماعي»، وموجة رائجة، يركبُها كثيرٌ من الناس!

والبعضُ مُتباهٍ مُقتصد،

فهو لا يكلف نفسه عناءَ شراءِ الكتبِ ليُصورها،

إنه ينتظرُ صورة يضعها متباهٍ آخر، فيأخذها هو، ويُعيدُ نشرها،

ويعلقُ على الصورة، هذا الكتاب جميلٌ جداً، وهو لا يعرف ما في طياته!

والبعضُ يقومُ بتصويرِ كتبٍ على أنه قد قرأها في العامِ المُنصرم،

ثم تجد نفس الصورةِ في عشراتِ الحسابات!

طبعاً لستُ ضد تصوير كتاب مع فنجان قهوة،

ولا ضد تصوير اقتباس جميل في كتاب،

فهذا من مُشاركةِ الأشياءِ الجميلة،

ما أنا ضده هو الادّعاء الثقافي فقط!

جاءَ في سيرةِ الرئيسِ الأمريكي «إبراهام لينكولن» الصادرةِ عن البيتِ الأبيض،

أنه قد حازَ على كذا وكذا شهادات،

وكذا وكذا أوسمة، ولائحة بالكِتب التي قرأها،

فلما قرأ لينكولن سيرته،

وجدَ أنَّ من بين الكِتب المذكورة أنه قد قرأ كتاباً لم يقرأه،

فطلبَ من مُساعديه إحضار الكتابِ إليه فوراً ليقرأه،

لأن المرء من العيب أن يدعي فعل ما لم يفعل!

في حكايات بلادِ فارس الشعبيّة،

أنَّ صياداً كانَ يصطادُ الطيورَ في يومٍ عاصفٍ،

فجعلتْ الريحُ تُدخِلُ في عينيه الغبار فتذرفان الدُّموع!

وكانَ كُلَّما اصطادَ عُصفوراً كسرَ جناحه وألقاه في الكيس.

فقالَ عصفورٌ لصاحبه: ما أرقَّه علينا، ألا ترى دموع عينيه؟

فقالَ له الآخر: لا تنظرْ إلى دموعِ عينيه، ولكن أنظُرْ إلى عملِ يديه!

عندما حدَّثَ النبيُّ ﷺ أصحابه عن الخوارج،

قالَ فيهم وصفاً بليغاً تقشعِرُّ له الأبدانُ في العبادة،

ويَدمى له القلبُ من سوء العمل!

فقال: تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم،

وعملكم مع عملهم، يقرأون القرآنَ لا يُجاوز حناجرهم،

يمرقون من الدينِ كما يمرقُ السهم من الرَّميَّة،

يقتلون أهلَ الإسلام، ويدعون أهلَ الأوثان!

لسنا أنا وأنتَ من نحقر صلاتنا مع صلاة الخوارج ونستقلها،

وإنما الصحابة أنفسهم!

فتخيل لتلك العبادة ما أشدهم فيها،

ثم أنظُر إليهم يقتلون خليفةَ المسلمين، ويستحِلُّون دماءَ المساكين!

إنه التناقض في أبشعِ صُوَرِه!

يقولُ «ابنُ المُقَفَّع»: من علاماتِ اللئيمِ المُخادع،

أن يكونَ حسنِ القول سيئ الفعل!

ويقولُ «ابنُ الجوزي» في «صيدِ الخاطر»: لقيتُ مشايخ أحوالهم مختلفة،

يتفاوتون في مقاديرِهم في العلم،

وكانَ أنفعهم لي في صُحبته، العامل منهم بعلمِهِ، وإن كانَ غيره أعلم منه!

ويقولُ «الثعالبي» في رائعته «لطائف اللطف»:

دخلَ أحدُ الأدباء على نصر، وفي يدهِ كتاب، وكانَ مِمَّن يُسيئون آدابهم.

فقالَ له: ما هذا؟

فقال: كتاب أدب النفس!

فقالَ له: فلِمَ لا تعملُ به!

ليس المقصود أنّنا إذا فعلنا الشرّ أن نقولَ الشر أيضاً،

فنجمعُ على أنفسنا قُبحَ الفعلِ وقُبح القول.

على العكس، جميلٌ جداً أن يعترفَ الإنسانُ

أنَّ الباطلَ الذي قامَ به هو باطل فعلاً،

فلا يستحله ولا يُبيحه، ولكن الأجمل أن يُوافقَ فعله قوله!

قالَ إسماعيل الغنوي، وكانَ عالماً بالأنساب:

جاءَ فخرُ الدين الرازي إلى مرو،

وكانَ من جلالِ القدر، وعِظَمِ الذِّكر، وضخامةِ الهيبة،

بحيث لا يُراجع في كلامه، ولا يتنفس أحدٌ بين يديه!

وكنتُ أترددُ للقراءةِ عليه، والأخذِ عنه، فقالَ لي مرةً:

أريدُ أن تُصنِّفَ لي كتاباً لطيفاً في الأنساب، لأحفظه.

ففعلتُ وجئته به، فنزلَ عن كرسيه،

وجلسَ على الحصيرِ حيث يجلسُ تلامذته، وأمرني أن أجلسَ على الكرسي!

فأبيتُ ذلك، فنهرني وقال: اِجلسْ حيثُ أمرتُكَ!

فجلستُ، وأخذَ يقرأ في الكتاب، ويسألُني عنه، وأنا أجيبه،

فلمَّا انتهى قالَ لي: الآن اِجلِسْ حيثُ شئتَ،

أما قبل هذا فأنتَ أستاذي وأنا تلميذك،

وليس من الأدبِ إلا أن تجلسَ على الكرسي وأجلسُ بين يديك على الحصير!

يا لتوقيرِ المعلمِ ما أجمله في هذه القصة!

فخرُ الدين الرازي الذي ملأ الدنيا علماً في زمانه،

وجدَ أن تلميذاً من تلامذته أعلم منه بالأنساب،

فطلبَ منه كتاباً فيه، ولما صارَ الكتابُ بين يديه،

أجلسَ تلميذه على كرسيه، وجلسَ هو على الحصير،

يتواضعُ لمن يأخذُ عنه شيئاً وهو بالأساس أحد تلامذته!

وكانَ سيبويه في كتاب «الكتاب» الذي أسماهُ النُحاةُ قرآن النحو،

إذا عرضَ قول أستاذه الخليل في المسألة، وأرادَ أن يُخالفه،

يخجلُ أن يذكرَ اسمه تأدباً مع معلمه، فيقول:

قالَ الخليلُ كذا، وقالَ بعضهم كذا، وهو الصواب!

يقصدُ ببعضهم نفسه!

وكانَ عبدُ الله بن عباس تُرجمان القرآن

تلميذاً عند الحَبر البحر زيد بن ثابت.

فركبَ زيد بن ثابت يوماً دابته،

فقامَ ابن عباس وأخذ بركابها/الحبل الذي تُربط فيه.

فقالَ له زيد: لا تفعل هذا يا ابن عمّ رسولِ الله!

فقالَ له ابن عباس: هكذا أُمِرنا أن نفعلَ بعُلمائِنا!

فأخذَ زيد يد ابن عباس وقبّلَها، وقال: هكذا أُمِرنا أن نفعلَ بأهلِ بيتِ نبينا!

يا لأدبِ التلميذ، وتواضع الأستاذ!

لِينوا لمن علَّمكم حرفاً، أو شرحَ لكم آيةً،

أو نقلَ إليكم حديثاً، أو أتحفكم بفائدةٍ لغوية،

أو أثراكم بحكمةٍ أدبية،

فهذا من الأخلاقِ الذي لا ينفع العلم شيئاً من دونه!

قالَ الحسنُ البصري: كانت شجرة تُعبدُ من دونِ الله،

فقالَ رجلٌ عابد: واللهِ لأقطعها، فجاءَ بفأسه،

فلقيه إبليس في الطريق، وأرادَ منعه، فتصارعا، فصرعَهُ الرجل!

فقالَ له إبليس: أنتَ رجلٌ فقيرٌ لو أخذتَ دينارين مني كل يوم على أن ترجع!

فقبلَ منه ذلك!

وكانَ إبليس لأيامٍ يُعطيه دينارين، ثم توقفَ عن ذلك!

فحملَ الرجلُ فأسه وعزمَ على قطعِ الشجرة،

فلقيه إبليس، فتصارعا، فصرعه إبليس.

فقالَ له الرجل: كيف صرعتُكَ أولاً ثم صرعتني الآن؟!

فقالَ له إبليس: أول مرةٍ جئتَ غاضباً للهِ فصرعتني،

أما الآن فجئتَ غاضباً للدينارين فصرعتُكَ!

ما كانَ للهِ بقِيَ، وما كانَ لغيره اندثرا!

عندما أرادَ مالك أن يكتبَ الموطأ، قِيل له: وما الفائدة، والموطآت كثيرة؟!

فقالَ لهم: ما كانَ للهِ يبقى!

وبقيَ الموطأ، لأنَّ مالكاً كانَ كله للهِ!

كانَ الإمامُ الذهبي مُعجباً بالقبولِ الذي وضعه الله تعالى للإمامِ النووي،

وكانَ كثيراً ما يقول: لو أني أعرفُ ما كانَ بين النووي والله!

ولكني أجزمُ أن النووي كانَ كله لله، فكانَ الله له!

رياضُ الصالحين ليسَ إلا كتاباً جمعَ فيه الإمام النووي أحاديثَ في أبوابها،

وهو أقل كُتبه اجتهاداً، فليسَ له فيه كثير مُداخلات، ولا ترجيحات،

ولكنه في العام 2010 كانَ أكثر الكتبِ مبيعاً في فرنسا!

فسُبحان من إذا رضيَ عن عبده وضعَ له القبول في الأرض، وحبَّبَ خلقه فيه!

ليسَ للمحتوى فقط بقيَ «مُسند أحمد»،

وليسَ للترجماتِ فقط بقيَ «سير أعلام النبلاء للذهبي»،

وليسَ للفقهِ فقط بقيَ «المُغني لابن قُدامة»،

وليسَ للتزكيةِ فقط بقيَ «مدارج السالكين لابن القيم»،

وليسَ للأدبِ الديني فقط بقيَ «صيد الخاطر لابن الجوزي».

هؤلاء كانَ بينهم وبين الله أسرار، كانوا له، فكانَ لهم!

روى «محمد بن أحمد المقري» في كتابه الرائع «المختار من نوادر الأخبار»،

أن عمارة بن حمزة دخل يوماً على أبي جعفرٍ المنصور،

فأجلسه في صدر المجلس، وأدناه منه.

فقام رجل فقال: مظلوم يا أمير المؤمنين!

فقال له المنصور: من ظلمكَ؟

فقال: «عمارة بن حمزة» الذي أجلسته في صدر المجلس، غصبَ لي ضيعةً!

فقال المنصور: قُمْ يا عمارة، واستوِ مع خصمك في المحاكمة، واجلس عنده!

فقال عمارة: ما هو خصمي يا أمير المؤمنين!

فقال له المنصور: وكيف ذلك؟

فقال: إن كانت الضيعة له فلا أنازعه فيها،

وإن كانت لي فقد وهبته إياها، وهي ملكه دون ملكي،

ولا أقوم من مجلسٍ شرّفني به أمير المؤمنين!

فاستحسن المنصور ذلك منه، واسترجح عقله،

وبقي حتى وفاته يدنيه منه!

قد يرى شخص أنّ في هذا الجواب تزلف للسلطان،

و«تمسيح جوخ» كما نقول في كلامنا الدارج،

وإني وإن كنتُ أمقتُ المتزلفين، ولا ينزل لي مساحو الجوخ من حلق،

إلا أني أرى أن ما جرى في هذه القصة هو من الأدب!

السلطان ليس كغيره من الناس،

واللغة التي يُخاطبُ بها يجب أن تكون منتقاة،

تعج بالأدب، وتزخر بالتوقير،

وهذا لا يعني التصفيق للباطل، ولا يعني ترك النصح للسلطان،

وإنما أعني الأسلوب، والأدب مقدم على العلم، والحكمة خير من كل شيء!

فكما أننا نُخاطب الطفل بلغة هي قريبة من عقله وعمره وتجربته بالحياة،

وكما نترفق بالشيخ الطاعن في السن ونجاريه،

ونرقُّ للعجوز المسنة ونتغافل،

ونعدُّ ذلك من الأدب وكمال العقل،

فكذلك مخاطبة كل إنسانٍ بما يليق بمركزه ومقامه،

إنما هو من الأدب وكمال العقل أيضاً!

زار الرشيد يوماً وزيره خاقان في بيته لمرضٍ نزل به،

وكان الفتح بن خاقان وزير العباسيين الشهير ما زال

طفلاً يومها،

فأراد الرشيد أن يلاطفه، فقال له: يا فتح أرأيتَ أجمل من هذا الخاتم؟

فقال له الفتح: أجمل من هذا الخاتم اليد التي هو فيها!

فقال له الرشيد: أيهما أجمل يا فتح، دار الخليفة أم دار أبيك؟

فقال له: دار أبي لأن الخليفة فيها!

أنزلوا الناس منازلهم، فهذا من هدي النبوة،

واختاروا مفرداتكم، الأدب لا يعني التزلف،

ولا تنسوا أن المرء يمكنه أن يقول الحقيقة بأسلوب جميل وتبقى حقيقة، وقابلة للسماع.

ويمكن أن يقول الحقيقة بأسلوب فظ فلا يقبلها أحد!

ثم إنك مهما كنت على حق، فالأسلوب أولاً،

فلا حقٌّ أعلى من التوحيد، ومع ذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾!

الحق الذي لا يُقدَّمُ على طبقٍ من اللطف لا يستمعُ إليه أحد!

كانَ عبدُ الملك بن الماجشون تلميذاً للإمامِ مالك،

وكانَ فقيهاً عابداً، وَلِيَ إفتاء المدينةِ المُنورة،

فجاءه بعض أصحابه مرةً وقالَ له: يا عبد الملك، أعجوبة والله!

فقالَ له: وما هي؟

فقال: خرجتُ إلى بستاني، ولمَّا صرتُ بعيداً عن البيوتِ اعترضني رجل،

وقال: اخلعْ ثيابك!

فقلتُ: وما يدعوني إلى خلعِ ثيابي؟

فقال: لأني أخوكَ وأنا عريان وأنتَ مُكتَسٍ، وقد لبستَها ما يكفي وهي الآن لي!

قلتُ: فتُعريني، وتُبدي عورتي؟

فقال: لا بأسَ بذلك، فقد سمعنا عن الإمامِ مالك قوله:

لا بأسَ أن يغتسلَ الرجلُ عرياناً!

قلتُ: فيَلقاني الناسُ ويرون عورتي؟

فقال: ما هذا موضع ناس وإلا ما اعترضْتُكَ فيه!

فقلتُ: دعني أصل إلى بستاني، فأخلعُ ثيابي وأُرسلها إليكَ!

فقال: كلا، إنما تُريدُ أن تبعثَ بغلمانك فيقتادوني إلى

السُلطان.

قلتُ: كلا، وإني أحلفُ لك.

فقال: كلا، فقد سمعنا عن الإمامِ مالك،

أنّ الأيمان التي يُحلَفُ بها لِلّصوصِ لا تُلزم أصحابها.

قلتُ: أحلفُ لكَ أني لا أحتالُ في يميني هذه.

ففكرَ ساعة ... ثم قال:

لقد تأملتُ أمرَ اللصوصِ من عهدِ النبيِّ ﷺ إلى اليوم،

فلم أجد لِصاً أخذ نسيئة، وإني أكره أن أبتدعَ في الإسلام، إخلع ثيابك!

فخلعتُها ودفعتُها إليه!

لِلوهلةِ الأولى قد تبدو هذه القصة طريفة، ويبدو هذا اللص أعجوبة،

ولكن في الحقيقةِ جميعنا فينا شيء من هذا اللصِ الفقيه!

ما أعنيه أننا لا نرتكب الأخطاء والذنوب بسببِ قلةِ العِلم،

ولا غيابِ الحُكم الشرعي عنا،

وإنما بسببِ قلةِ التقوى، وفي لحظةِ غياب الورع،

وهذا شيءٌ طبيعيٌ بالمناسبة، كلنا ذو ذنبٍ، وسِمة الناسِ الخطأ،

ولكن المؤمن يُسارعُ في العودةِ والإنابةِ والاستغفار،

والفاجر يُصِرُّ ويستكبر ويُدبِر!

إبليس من أعلَمِ الخلقِ بالحلالِ والحرام،

ولكن علمه لم ينفعه، كانَ الكِبر مقتله!

وفرعون كانَ يعرفُ أنَّه كذاب،

والنمرودُ كانَ يعرفُ أنه أحقر من أن يخلقَ ذُبابة،

والذين حرَّفوا التوراةِ كانوا أعلم الناس بها!

ما أعنيه أننا أحياناً نحتاجُ إلى كثيرٍ من الوَرَعِ والخِشيةِ والتَّقوى،

نُزينُ به هذا العلم الذي نعلمه!